

علوم البلاغة العربية

الدكتور محمد ربيع

الطبعة الأولى

دار الفكر للنشر والتوزيع

دار صفاء للنشر والتوزيع


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

علوم البلاغة العربية



دار الفكر
للنشر والتوزيع

عمان - الاردن - ساحة الجامع الحسيني
هاتف ٦٢١٩٣٨

علوم البلاغة العربية

تأليف
د. محمد أحمد ربيع





مقدمة

البلاغة، هي تأدية المعنى الجليل بأسلوب جميل، له في النفس أثر خلاب، مع مراعاة للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون، والبلاغة فن يعتمد على الموهبة والاستعداد الفطري والثقافة الواسعة ومعايشة الأدب الجيد قراءة وتذوقاً وكتابة.

حقاً، لقد آن الأوان للبلاغة الجامدة التي تعتمد على القوالب الشكلية والتعريفات المنطقية التي تخلو من الحياة والحيوية، أن تولي إلى غير رجعة، ذلك لأنها تركت ضيقاً وتبرماً لدى الطلبة والدارسين، ولا بدَّ أن يحل محلها بلاغة جديدة، تملأ القلب، وتسرُّ العين، وتنمي العقل، وتربي الذوق، وتعلم الجمال، وترغب الطلبة ودارسي البلاغة على الإقبال عليها بشوق ورغبة من خلال النصوص الأدبية الممتازة للوقوف على أسرارها وتذوق أفاويقها.

وكتابنا هذا محاولة جادة لتيسير دراسة البلاغة على أبنائنا الطلبة وفق خطة وزارة التعليم العالي لطلبة كليات المجتمع. وقد راعينا في هذا الكتاب تمكين الدارس من توظيف علوم البلاغة في دراسة الظواهر اللغوية في الأعمال الأدبية التي يتعامل معها، فأكثرنامن الأمثلةمن القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، ومن الشعر العربي الجيد.

وقد جمعنا في هذا الكتاب مباحث من علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، وهي جميعاً ليست إلّا وسيلة لبيان التذوق في القول العربي، والوقوف

على أسرار الجمال في الأدب العربي شعره ونثره، والكشف عن إعجاز القرآن في نظمه ومعناه، وتوجيهاته وأحكامه وفهم آيِه.

نرجو أن نكون قد وفقنا في عملنا هذا، فإن أصبنا فالخير أردنا، وإن أخطأنا فحسبنا أننا اجتهدنا.

المؤلف

د. محمد أحمد ربيع

جرش

١٤ ذو القعدة/١٤١١

ـ علوم البلاغة ـ

ـ الفصل الأول ـ

الفصاحة والبلاغة والفرق بينهما .

البلاغة والمستويات الثقافية .

البلاغة واللغة والفرق بينهما .



علوم البلاغة

يرى بعض الدارسين أن علوم البلاغة أجلُّ العلوم الأدبية قدراً، وأرسخها أصلًا، وأبسقها فرعاً، وأحلاها جنى، وأعذبها ورداً. لأنها العلوم التي تستولي على استخراج درر البيان من معادنها، وتريك محاسن النكت في مكامنها. ولولاها لم ترَ لساناً يحوك الوشي، ويلفظ الدر، وينفث السحر، ويريك بدائع الزهر، وينثر بين يديك الحلو اليانع من الثمر. فهي الغاية التي تنتهي إليها أفكار النظر، واللآليء التي تتطلبها غاصة البحار. لهذا كانت منزلتها تلي العلم بتوحيد الله تعالى[(١)].

ويرى آخرون أن البلاغة العربية تتمثل أولاً وأخيراً في النصوص المكتوبة أو الملفوظة وحدها. ولقد أجاب ابن المقفع حين سئل عن البلاغة فقال: «البلاغة اسم يجري في وجوه كثيرة، منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون خطباً، وربما كانت رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب فالوحي، والإشارة إلى المعنى أبلغ، والإيجاز هو البلاغة»[(٢)].

ويرى ابن المعتز أن «البلاغة هي البلوغ إلى المعنى، ولمَّا يَطُلْ سَفَرُ الكلام»[(٣)].

كما يرى الخليل بن أحمد الفراهيدي أن البلاغة ما قَرُبَ طرفاه، وبَعُدَ منتهاه».

أما الدكتور بكري شيخ أمين فيخالف هذه الآراء جميعاً بقوله: «عبثاً إذن أن نقول: السكوت بلاغة، والإيجاز بلاغة، وأمثال هذه الأقوال، لأن للظروف

---

(١) أحمد الهاشمي ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ـ ص٦.

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ ج١ ـ ١١٥.

(٣) البديع ـ ص٤٧.

أحكامها، وللمواقف متطلباتها.

والبلاغة الحق، إضافة إلى كونها الكلام المكتوب، أو المسموع، هي التي تُقَدِّر الظروف والمواقف، وتعطي كل ذي حق حقه، سواءً أكانت شعراً أم نثراً، مقالاً أم قصة، مسرحية أم حكاية، مديحاً أم هجاءً، غزلاً أم استعطافاً»[1].

وما دامت البلاغة مقصورة على الحديث المكتوب أو المسموع، فأين تكون من هذا الحديث، أتقع في ألفاظه أم في معانيه؟

لقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في موقعها، وانقسموا شيعاً وأحزاباً، فمنهم من انحاز إلى جانب اللفظ، ومنهم من انحاز إلى جانب المعنى، ومنهم من رأى بينهما صلة لا يمكن فصلها.

لهذا كله يدور اليوم جدل كثير حول علوم البلاغة وغايتها والفائدة منها، ومدى ملاءمتها لمقتضيات الدراسة العصرية. والسبب في ذلك يعود إلى القوالب التي صُبَّت فيها هذه العلوم، والأشكال التي اتخذتها قواعدها، والصور التي وصلت بها إلينا، فاعتمدها علماء العربية في الدرس، وهي تتلخص في مجموعة من التحديات المنطقية الجافة التي يطغى فيها الجانب النظري على الجوانب العملية، فانحرفت فيه العلوم عن خطها السليم، ففقدت غايتها الأساسية، وَخُيِّل للدارسين أن المعارف النظرية هي غاية بذاتها، فأصاب علوم البلاغة تحجر وجمود، وانفصلت عن النصوص الأدبية الجميلة التي هي ميدانها وحقل تطبيقها، وعن الذوق الأدبي السليم، فتقوقعت ضمن أقيسة وحدود سادها المنطق الجاف، حتى بات الذوق ينفر منها، ويجدها عبئاً ثقيلاً ورياضة ذهنية، ليس فيها نفع كبير.

والحقيقة أن علوم البلاغة ليست كذلك، ولا يجوز أن تكون كذلك، أو تُتَصَوَّر على هذا النحو. فالذي أفسدها هو فساد الذوق في عهود التخلف، وغلبة الصنعة والتكلف، والبعد عن الطبع. فإذا أردنا أن نعرف البلاغة الحقيقية، فلنعد إلى كلام

(١) البلاغة العربية في ثوبها الجديد ـ جـ١ ـ ١٥.

البلغـاء سواء كانوا جاهليين أو إسلاميين أو أمويين أو عباسيين، حيث لم تكن البلاغة أقيسة منطقية، وحدوداً وتعريفات، وقواعد نظرية تحفظ، وإنما كانت ذوب الطبع، ورواء الذوق، وعفو القريحة، وكان الناس يعجبون بها، وترتاح إليها نفوسهم، ويتذوقونها لفظاً ومعنى وأسلوباً[1].

(١) د. أحمد أبو حاقة ـ البلاغة والتحليل الأدبي ـ ص١١.

الفصاحة والبلاغة والفرق بينهما

الفصاحة لغةً: البيان والظهور. قال تعالى: ﴿**وأخي هارون هو أفصح مني لساناً**﴾، أي أبين مني منطقاً وأظهر مني قولاً.

ويقال: أفصح الصبي في منطقه، إذا بان وظهر كلامه. وقالت العرب: أفصح الصبح: إذا أضاء، وأفصح الأعجمي: إذا أبان بعد أن لم يكن يُفْصِح ويُبين. وفصح اللسان: إذا عبر عما في نفسه، وأظهره على وجه الصواب دون الخطأ[1].

أما الفصاحة في اصطلاح أهل المعاني، فهي عبارة عن الألفاظ البينة الظاهرة المتبادرة إلى الفهم، والمأنوسة الاستعمال بَيْنَ الكتَّاب والشعراء لمكان حسنها. وهي تقع وصفاً للكلمة، والكلام، والمتكلم.

أ ـ فصاحة الكلمة:

تكون الكلمة فصيحة عند أهل اللغة إذا اتصفت بالصفات التالية:

١ ـ خلوصها من تنافر الحروف، لتكون رقيقة عذبة، تخفُّ على اللسان، ولا تثقل على السمع، فلفظة أسد أخف من لفظة «فَدَوْكَس»، ولفظة «مزنة» أو «ديمة» حسنة يستلذها السمع، ولفظة «بُعَاق» قبيحة يكرهها السمع.

٢ ـ خلوصها من الغرابة، وأن تكون مألوفة الاستعمال. ونعني بالغرابة، أن تكون وحشية، أو غير ظاهرة الدلالة على معناها، فيحتاج في فهمها:
إمّا إلى أن يبحث عنه في الكتب اللغوية المطولة، كما روي عن عيسى بن عمرو النحوي أنه سقط عن حماره، فاجتمع الناس حوله فقال: «ما لكم

(١) انظر: جواهر البلاغة ـ ص٦ـ٧، والمثل السائر ـ ص٩٠، وكتاب الصناعتين ـ ١٦.

تكـأكأتم عليَّ كتأكئكم على ذي جنة؟ افرنقعوا»، أي ما لكم تجمعتم عليَّ كتجمعكم على مجنون؟ تنحوا عني.

وإمّا أن يلتمس لها وجه بعيد كما في العجاج:

أيام أبـدت واضحـاً فلجـاً ... أغـرَّ براقـاً وطـرفـاً أدعجـا
ومقـلةً وحـاجبـاً مزججـا ... وفـاحمـاً ومـرسناً مسرجـا

فإنه لم يعرف ما أراد بقوله: «مسرجاً». وقد اختلف في تخريجه: فقيل: هو من قولهم للسيوف: سريجية، نسبة إلى قين اسمه سُرَيْج. يقصد الشاعر أن أنف محبوبته في الاستواء والدقة كالسيف السريجي، وقيل: من السراج.

يريد أنه في البريق كالسراج، وهذا يقرب من قولهم: سرج وجهه، أي حسن، وسرّج الله وجهه أي بهَّجه وحسَّنه.

ومن الكلمات الغـريبة لأنها غير مألوفة الاستعمال «الحقلَّد» بمعنى السيء الخلق، و «الابتشاك» بمعنى الكذب[1].

٣ ـ خلوصها من مخالفة القياس الصرفي، حتى لا تكون شاذة. مثال ذلك كلمة «ضننوا» يعني: بخلوا في قول الشاعر:

مهـلاً أعـاذلُ قد جرَّبت من خلقي ... أنـي أجـود لأقـوام وإن ضننـوا

فكلمة «ضننوا» غير فصيحة ومخالفة للقياس الصرفي. ومثلها كلمة «الأجلل» في قول الشاعر:

الحـمـد لله العـلي الأجلل ... أنت مليك النـاس ربّاً فاقبـل

٤ ـ خلوصها من الكراهة في السمع:

ففصاحة الكلمة أن تكون حروفها متآلفة، يسهل على اللسان نطقها من غير

(١) د. عبده عبد العزيز قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ ص٢٣-٢٤.

عنـاء، مع وضـوح معنـاها، وكثرة تداولها بين المتكلمين، وموافقتها للقواعد الصرفية، ومرجع ذلك الذوق السليم، والإلمام بمتن اللغة.

ويجب العلم أنه ليس تنافر الحروف يكون موجبه دائماً قرب مخارج الحروف إذ قربها لا يوجبه دائماً، كما أن تباعدها لا يوجب خفتها.

فهـا هي كلمـة «بفمي» حسنة، وحروفها من مخرج واحد وهو الشفة، وكلمة «ملع» متنـافرة ثقيلة، وحروفها متباعدة المخارج، كما أنه ليس موجب التنافر طول الكلمة وكثرة حروفها.

ب ـ فصاحة الكلام:

فصـاحة الكلام: سلامته بعد فصاحة مفرداته مما يبهم معناه، ويحول دون المـراد منـه، ومرجع ذلك الذوق السليم، والإلمام بقواعد النحو، بحيث يكون واضح المعنى، سهل اللفظ، حسن السبك، وتتحقق فصاحة الكلام بخلوه من أربعة عيوب هي:

١ ـ تنافر الكلمات مجتمعة.
٢ ـ ضعف التأليف.
٣ ـ التعقيد اللفظي.
٤ ـ التعقيد المعنوي.

فعيب الكـلام إمّـا في مادته وهو تنافر الحروف، أو في صورته وهو ضعف التأليف، أو في دلالته على المعنى وهو التعقيد[1].

١ ـ تنافر الكلمات مجتمعة:

وهو أن تكون الكلمات مجتمعة ثقيلة على اللسان، يتعسر النطق بها، وإن كانت كل كلمة على حدة لا ثقل فيها، والتنافر نوعان:

---

(١) د. عبده عبد العزيز قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ ص٢٤.

أ ـ تنافر شديد، كقول الشاعر:

وقبـــر حرب بمـــكـــان قفـــر ولـــيس قرب قبـــر حرب قبـــر

والشاهد فيه المصراع الثاني، فإن كلماته متنافرة أشد التنافر، حتى إن اللسان لا يكاد يلفظ بها مجتمعة.

ب ـ تنافر خفيف، كقول أبي تمام في المدح:

كريم متى أمـدحـه أمـدحـه والـورى معـي وإذا ما لمـتــه لمتــه وحــدي

والشاهد فيه قوله: «أمدحه أمدحه». فإن في اجتماع هاتين الكلمتين ثقلاً في النطق بهما، يشعر به صاحب الذوق السليم.

وما قيل من أن الجمع بين الحاء والهاء، إنما سببه الثقل مردود بقوله تعالى: ﴿فسبحه ليلاً طويلاً﴾.

٢ ـ ضعف التأليف:

وهو أن يكون في التركيب العام للكلام خروج على قوانين النحو التي ارتضاها جمهـور النحاة. كالإضمار قبل ذكر المرجع في قولنا: «قتل آسرُه الأسيرَ»، فإن الضمير في «آسره» راجع إلى الأسير، والأسير متأخر لفظاً ورتبة.

ومثله قول الشاعر:

جزى بنــوه أبــا الـغـيلان عن كبــر وحـسن فعــل كمــا جوزى سنمــار

وكالإضمار قبل الذكر في الإخلال بفصاحة الكلام، الإتيان بالضمير متصلاً بعد «إلّا» كقول الشاعر:

ومــا علينــا إذا ما كنــت جارتــنــا ألّا يجــاورنــا إلاك ديَّار

الأصل: إلّا إياك.

٣ ـ التعقيد اللفظي:

هو أن يكون الكلام خفي الدلالة على المعنى لخلل واقع في نظمه وتركيبه، بحيث لا يكون ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعاني بسبب تقديم أو تأخير، أو فصل أو حذف، أو نحو ذلك مما يترتب عليه صعوبة فهم المعنى المراد، وهو على ضربين: شديد وخفيف.

فالشديد: كما في قول الفرزدق يمدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال هشام بن عبد الملك:

وما مثله في الناس إلّا مملكا أبو أمه حيٌّ أبوه يقاربه

يريد أن يقول: ليس مثل الممدوح في الناس حيٌّ يقاربه في الفضائل إلّا مملكاً أبو أم ذلك الملك أبو الممدوح، أي لا يحاكيه أحد إلّا ابن أخته وهو هشام.

ففيه من التقديم والتأخير والفصل ما عقد اللفظ حتى خفي المعنى واستغلق على الفهم.

ومثل البيت السابق في شدة تعقيده قول الآخر يصف داراً بالية:

فأصبحت بعد خط بهجتها كأنَّ قفراً رسومها قلما

وأصل الكلام: فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلماً خط رسومها.
وهذا التقديم والتأخير والفصل جعله مثالاً للتعقيد اللفظي.

أمّا التعقيد اللفظي الخفيف، فشاهده قول المتنبي:

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل

يصف قوما بحسن الشمائل. جفخت أي افتخرت، وأصل التركيب هكذا: جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الأغر وهم لا يجفخون بها.

وقد فصل الشاعر بين الفعل والفاعل وهما «جفخت شيم» بأجنبي هو جملة

«وهم لا يجفخون بها» الواقعة حالاً، وفصل بين الصفة والموصوف وهما «شيم دلائل» بالجار والمجرور الموصوف وهما «على الحسب الأغر».

ومثله قوله الفرزدق في وصف الذئب:

تعال فإن عاهدتني لا تخونني   فكن مثل من يا ذئب يصطحبان

يريد: فكن يا ذئب مثل من يصطحبان، ففصل بين الموصول والصلة، فعقد اللفظ بعض التعقيد.

٤ ـ التعقيد المعنوي:

وهو أن يكون التركيب خفيَّ الدلالة على المعنى المراد، بحيث لا يفهم معناه إلّا بعد عناء وتفكير طويل. وذلك الخلل في انتقال الذهن من المعنى الأصلي إلى المعنى المقصود، بسبب إيراد اللوازم البعيدة، المفتقرة إلى وسائط كثيرة، مع عدم ظهور القرائن الدالة على المقصود، كقول العباس بن الأحنف:

سأطلبُ بُعْدَ الدار عنكم لتقربُوا   وتسكبُ عيناي الدموعَ لتجمُدا

جعل سكب الدموع كناية عما يلزم في فراق الأحبة من الحزن والكمد، فأحسن وأصاب، ولكنه أخطأ في جعل جمود العين كناية عما يوجبه التلاقي من الفرح والسرور بقرب أحبته، وهو خفيٌّ وبعيد، أي أن جمودهما هو بخلهما بالدمع وقت الحاجة إليه لا ما أراده من السرور. إذ لم يعرف في كلام العرب عند الدعاء لشخص بالسرور أن يقال له: (جمدت عينك)، أو «لا زالت عينك جامدة»، بل المعروف عندهم أن جمود العين إنما يكنى به عن عدم البكاء حالة الحزن، كما في قول الخنساء:

أعينيَّ جودا ولا تَجْمُدا   ألا تبكيانِ لصخر الندى

وكما في قول أبي عطاء يرثي ابن هبيرة:

ألا إن عينـاً لم تجـد يوم واسطٍ عليكَ بجـاري ـ

وهكذا كل الكنايات التي تستعملها العرب لأغراض ويغيرها المتكلم ويريد بهـا أغـراضاً أخرى تعتبر خروجاً عن سنن العرب في استعمالاتهم، ويعد ذلك تعقيداً في المعنى، حيث لا يكون المراد بها واضحاً.

جـ ـ فصاحة المتكلم:

فصاحة المتكلم: ملكة يقتدر بها صاحبها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيحٍ[2].

فلفظ «ملكة» وليس «صفة» إشعاراً بأن الفصاحة من الحالات المستقرة في نفس الفصيح، حتى إن المعبر عن مقصوده بلفظ فصيح لا يعد فصيحاً إلّا إذا كانت القوة التي اقتدر بها على التعبير ملازمة له وراسخة فيه.

ولفظة «يقتدر» وليـس «يعبر» ليشمل التعريف الفصاحة بالقوة الثابتة في نفس المتكلم، القـادر على صياغـة الكلام، متمكناً من التصرف في ضروبه، بصيراً بالخوض في جهاته ومناحيه.

وتكتسب ملكة الفصاحة عن طريق التمرس بالآثار الأدبية شعراً ونثراً، قراءة وحفظاً وفهماً. وبعبارة أخرى، تذوقاً ومعايشة.

البلاغة:

البلاغة لغةً: الوصول والانتهاء، يقال: بلغ الشخص بلاغةً، إذا وصل بكلامه إلى ما يريده له من تأثير أو إقناع. وبلغ الركب المدينة: انتهى إليها، ومبلغ الشيء منتهاه.

---

(١) أي لبخيلة بالدموع.

(٢) جواهر البلاغة ـ ص٣٠، والبلاغة الاصطلاحية ـ ص٢٩.

أمّـا البـلاغة اصطلاحاً: فهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، بلاغة تكون وصفاً للكلام والمتكلم، ولا توصف بها الكلمة المفردة، لقصورها عن الوصول بالمتكلم إلى غرضه من حيث أداء المعنى أداءً كاملاً[1].

أ ـ بلاغة الكلام:

البلاغة في الكلام: مطابقته لما يقتضيه حال الخطاب، مع فصاحة ألفاظه مفردها ومركبها.

والكلام البليغ: هو الذي يُصوِّره المتكلم بصورة تناسب أحوال المخاطبين.

وحال الخطاب «ويسمى بالمقام»، هو الأمر الحامل للمتكلم على أن يورد عبارته على صورة مخصوصة دون أخرى.

وحـال الخـطاب هو في الحقيقـة لُبُّ البـلاغة وجوهرها. إنه وضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب، إنه مخاطبة الناس على قدر عقولهم وأفهامهم، إنه حديث الأذكياء بما يليق بالأذكياء، وهو مخاطبة الأغبياء بما يليق بالأغبياء.

حال الخـطاب أو مقتضى الحـال، أن تخاطب الملوك بلغة تليق بالملوك، وتحدث السوقة بما يفهمه السوقة والرعاع مع مراعاة الفصاحة.[2]

حال الخـطاب أن تخاطب من فقد أمه أو أباه أو حبيبه بلغة الدمع والحرقة والألم، وأن تحدث من طار به الشوق، وغنت له الفرحة بلغة الزقزقة والتغريد، وكلمات السعادة والفؤاد الخفاق.

وتفيض كتب النقد بأخبار الشعراء الذين أخطأهم التوفيق في هذا المجال، حيث لم يراعوا مقتضى الحال، واستحقوا نقداً أو لوماً أو توبيخاً.

---

(١) انـظر ـ جواهـر البـلاغـة ـ ص٣١، والبـلاغـة الاصطلاحية ـ ص٢٩، وصناعة الكتابة ـ ص٤٦٩، والمثل السائر ـ ص٣٩، وسر الفصاحة ـ ٥٩.

(٢) د. بكري شيخ أمين ـ البلاغة العربية ـ ج١ ـ ص٤٠.

من هذه الأخبار، أن أبا النجم دخل على هشام بن عبد الملك، فأنشده قصيدته التي مطلعها:

صفـراء قد كادت ولـمـا تفـعـل وكـأنـهـا في الأفـق عين الأحـول

وكان هشام أحول العين، فأمر بحبسه.

ومدح جرير عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي بقصيدة مطلعها:

أتـصـحـو أم فؤادك غير صاح عَشيَّـةَ هبَّ صحـبـك بالـرواح

فاستنكر عبد الملك هذا المطلع وقال له: بل فؤادك أنت.

وأنشد ابن قيس الرقيّات عبد الملك بن مروان قصيدته البائية، فلما انتهى إلى قوله:

يأتـلق الـتـاج فوق مفـرقـه على جبـين كأنـه الـذهـب

فغضب عبد الملك وقال له: قد قلت في مصعب بن الزبير:

إنـمـا مصـعـب شهـابٌ من الـلـ ـه تجـلَّت عن وجـهـه الـظلمـاء

فأعطيته المدح بكشف الغمم، وجلاء الظلم، وأعطيتني من المدح ما لا فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضارة.[1]

وأخيراً، فإن البلاغة إيراد الكلام وفق مقتضى الحال، ومناسبة المقام، وكل إخلال بهذا الجانب إخلال بالصياغة الفنية.[2]

فالأمـر الذي يحمل المتكلم على إيراد كلامه في صورة دون أخرى يسمى «حالاً»، وإلقاء الكلام على هذه الصورة التي اقتضاها الحال يسمى «مقتضى»،

---

(١) أبو هلال العسكري ـ الصناعتين ـ ص١١٤.

(٢) البلاغة العربية ـ ج١ ـ ص٤٤.

والبلاغة: هي مطابقة الكلام الفصيح لما يقضتيه الحال.[1]

ب ـ بلاغة المتكلم:

بلاغة المتكلم هي ملكة راسخة في نفس صاحبها، بها يقتدر من تأليف كلام بليغ مطابق لمقتضى الحال مع فصاحة في المعنى.[2]

والأمر في اكتساب ملكة البلاغة كالأمر في اكتساب ملكة الفصاحة كلاهما رهن بتشرب الكلام البليغ لدرجة التشبع.

فمن أحاط بأساليب العرب وخبرها، وعرف سنن تخاطبهم في منافراتهم ومفاخراتهم ومديحهم وهجائهم وشكرهم واعتذارهم وعرف أن لكل مقام مقال فهو البليغ.

ومما قيل في وصف البلاغة: لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك.[3]

وقال الفضل: قلت لأعرابي: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل.[4]

وقال رسول الله ﷺ للعباس وقد سأله فيمَ الجمال؟ فقال: «في اللسان».

الفرق بين الفصاحة والبلاغة:

الفرق بين الفصاحة والبلاغة، أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلاّ وصفاً للألفاظ مع المعاني. وأن الفصاحة تكون وصفاً للكلمة وللكلام، والبلاغة لا تكون وصفاً للكلمة، بل تكون للكلام، وأن فصاحة الكلام

(١) جواهر البلاغة ـ ص٣٤.
(٢) أحمد الهاشمي ـ جواهر البلاغة ـ ص٣٤.
(٣) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ ج١ ـ ص٩١.
(٤) المرجع السابق ـ ص٩١.

شرط في بلاغته، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه.[1]

وأخيراً، فإن الميزان في البلاغة هو أن صياغة الكلام وفقاً لمقتضى الحال، وكل إخلال بهذا الجانب إخلال بالصياغة الفنية، وتهون من قدرها، واللبيب من يضع الأشياء في مواضعها، ويخاطب الناس على قدر عقولهم ومقاماتهم.

(١) ابن سنان الخفاجي ـ سر الصاحة ـ ٥٩.

«البلاغة والمستويات الثقافية»

يقصد بالمستويات الثقافية المناشط الإنسانية التي تؤثر في حياة الأديب، والتي من خلالها يستطيع أن يقبل أو يرفض مواقف من الحياة تبعاً لدرجة ثقافته في مناشط الحياة المختلفة، لغوية أو نقدية، أو دينية، أو نفسية، أو اجتماعية.[1]

لهذا نجد أن البلاغة باعتبارها واحداً من مناشط الإنسانية مع بقية مناشط الحياة الأخرى. ولا يقصد بهذه الدراسة للبلاغة، بأنها ذلك العلم المقنن، وإنما المقصود بها فناً من الفنون الأدبية. يهم جميع الناس وخاصة الأدباء منهم، فهم يمارسونها باعتبارها منشطاً ثقافياً، وبعبارة أخرى: يراد بالبلاغة الناحية الوظيفية التي تؤديها وصلة هذه البلاغة بالفنون الأدبية الأخرى.

وحقاً لقد عرف العرب الأُول البلاغة الحقة ووظيفتها في القول والكلام المدون وتأثيرها في النفوس، دون أن يعرفوها كعلم مقنن لا حياة فيه ولا رواء.

لقد أنتجوا أدباً سامقاً في عصورهم التاريخية المتتابعة، وعرفوا بحسهم كيف يتوقون التعقيد اللفظي والمعنوي في ذلك الأدب، فكان فن البيان، وعرفوا تطبيق الكلام على مقتضى الحال باستخدامهم المعاني اللطيفة التي تتناسب ومقامات الناس ومكاناتهم، وعرفوا كيف يتجنبون الخطأ في تأدية المعاني المرادة، وكيف يوردون الكلام وفق مقتضيات الأحوال.

أما الوجوه التي تضفي على اللفظ البهاء والرواء، فقد استخدموها أحسن استخدام دون مبالغة فيه أو إغراق، وهذا ما عرف «بعلم البديع» مؤخراً. والإجادة في استخدام ضروب البيان والمعاني والبديع هي البلاغة الحقة.

---

(١) د. محمود أبو عجمية وزملاؤه ـ علوم البلاغة ـ ١٥.

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن البلاغة كفن جميل يكسب الكلام والمتكلم قوةً وتأثيراً في النفس، أن نسوق بعض النماذج الشعرية والنثرية الممتازة، والتي حكم لها بالجودة من قبل النقاد والمتذوقين لهذه البلاغة.

تحاكم امرؤ القيس وعلقمة الفحل إلى أم جندب الطائية زوج امرىء القيس، فأنشد امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها:

خليليَّ مرَّا بي على أمِّ جُنْدُب نُقَضِّ لُباناتِ الفؤادِ المعذَّب

إلى أن قال في وصف فرسه:

فللزجر ألهوب، وللساق دَرَّةٌ وللسوطِ منهُ وقع أهوجَ مَهْذَبِ

وأنشد علقمة قصيدته التي مطلعها:

ذهبتِ من الهجران في غير مذهب ولم يكُ حقاً كلُّ هذا التجنُّب

إلى أن قال في وصف فرسه:

فأدركهن ثانياً من عنانه يَمرُّ كَمَرِّ الرائح المتحلِّب

فلما فرغا من إنشادهما فضلت علقمة على امرىء القيس، فقال لها: بم فضلته؟ فقالت: فرس ابن عبدة أجود من فرسك. قال: وبم؟ قالت: إنك زجرت، وحركت ساقيك، وضربت بسوطك.[1]

سمع الوليد بن المغيرة الرسول محمداً ﷺ وهو يقرأ قوله تعالى: **﴿إن الله يأمرُ بالعدل والإحسان وإيتاىء ذي القُرْبَى وينهى عن الفحشاءِ والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكّرون﴾**[2]. فقال الوليد: «والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر».

---

(١) المرزباني ـ الموشح ـ ٢٨.

(٢) سورة النحل ـ آية ٩٠.

ويسمع عبد الملك بن مروان قول نصيب:[1]

أهـيم بدعــةٍ ما حييت فإن أمــت فواحــزنــا من ذا يهيم بهــا بعــدي

فقال بعض من حضر: أساء القول، أيحزن لمن يهيم بها بعده؟ فقال عبد الملك: فلو كنت قائلاً، ما كنت تقول؟ فقال:

أهـيم بدعــدٍ ما حييت فإن أمــت فلا صلحت دعــد لذي خلة بعـدي

كما قال عبد الملك يوماً لجلسائه: أعلمتم أن الأحوص أحمقُ لقوله:

فمــا بَيْضَــةٌ بات الـظليم يحـفُّهــا ويجـعـلهــا بين الجنــاح وحَــوْصَلَةْ
بأحـســن منهــا يوم قالـت تدلــلاً تبــدَّلْ خليلي إنــنــي متــبــدلــةْ

فما أعجبه وهي تقول هذه المقالة، والجيد قول أبي تمام:

لا شيءَ أحــســن منــه ليلةَ وصــله وقــد اتــخــذتُ مخــدَّةً من خدِّه

ومن خلال النماذج السابقة ندرك أن الفيصل في الحكم على الشعر بالجودة إنمـا هو الذوق والسليقة والطبع. فقد أصدرت أم جندب حكمها لصالح علقمة الفحل دون امرىء القيس وهو زوجها، وعللت حكمها بأن فرس علقمة أجود من فرس امرىء القيس.

أما الوليد بن المغيرة بالرغم من كفره ومعاداته لمحمد ﷺ ودينه، لكن أصدر حكماً عندما سمع القرآن، بأنه ما سمع مثله من قبل، وما هذا بكلام بشر. لقد كان تأثيره على نفس الوليد كبيراً، حتى كان وقعه على نفس الوليد وقعاً منقطع النظير من حيث الجرس والموسيقى والمعاني التي لم يسمع بها من قبل.

أما عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الناقد فنجده قد ميز الشعر الجيد من غير الجيد بذوقه وطبعه.

---

(١) الصناعتين ـ ١٢٩.

لقد صدرت هذه الأحكام بعد أن قام مصدروها بتوظيف البلاغة باعتبارها ممارسة يومية يمارسونها، فارتبطت البلاغة على هذا النحو بمستويات ثقافية، وإن كان الذوق والسليقة عمادها.

ويقرر عبد القاهر الجرجاني أن الإحساس بالفكرة وعمقها، وطريقة النظم في أدائها، هو الأساس الذي يرتكز عليه تقييم العمل الأدبي، وأن الناقد والأديب مهما بذلا من الجهد فإنهما لا يستطيعان إبراز كل الأصول التي يعتمد عليها ذلك التقييم، فيقول:

«وليس الأمر في هذا كذلك، فليس الداء فيه بالهين، ولا هو بحيث إذا رمت العلاج منه وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مسعفاً، والسعي منجحاً، لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصوِّر لهم شأنها أمور خفية، ومعانٍ روحانية، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها وتحدث له علماً بها حتى يكون مهيأ لإدراكها، وتكون فيه طبيعة قابلة لها، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه إحساساً بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض المزية على الجملة فيها، ومن إذا تصفح الكلام وتدبَّر الشعر فرَّق من بين موقع شيء منها وشيء».

وعبد القاهر هنا، وفي غير ذلك الموضع من كتابه «دلائل الإعجاز» يؤكد أن فكرة الذوق القاضية على العمل الأدبي، لا تعتمد على دراسة مرتبطة بالنظم، محددة في إطارات عقلية أو ذهنية، يستطيع الدارس أن يضع يده عليها وأن يتخذها معايير يقيس بها العمل الفني، وإنما الأمر في هذا كله بعد الدراسة والخبرة يعتمد على الذوق المرهف، والإحساس النافذ، والإدراك الواعي، ولا سبيل إلى تحصيل هذا الذوق إلّا بالتمرس بالأساليب ورواية الشعر وتفسيره.

وقد فرّق عبد القاهر بين العلم والفن. فالعلم يعتمد على قواعد يمكن أن تتخذ معايير للحكم على الحقائق الواردة فيه، أما الفن فإن له أدواته، ولكنها أدوات محدودة بحدود الصورة الفنية. أما البحث عن روح هذه الصورة وبيان ما فيها من وجوه الإبداع والجمال فلا يجتمع لهذه الأدوات، وإنما تحتاج إلى دربة خاصة،

وإدراك بصيرة، وقدرة خارقة على اجتياز الحدود والرسوم إلى الوصول إلى جوهر العمل الفني.

وللكلام البليغ مراتب: أعلاها ما يصل إلى حد الإعجاز أو ما يقرب منه، مما يتبينه الأدباء في كلام الله تعالى وكلام رسوله الكريم، ومن دون ذلك مراتب كثيرة، تتفاوت فيها أقدار البلغاء، من الكتاب والشعراء ورجال الأدب.(١)

هذا، وقد تطور مفهوم البلاغة وكثرت الدراسات المتخصصة فيها، حتى أصبح ينظر إليها كعلم مستقل يجب التجربة لمعرفة فنون القول وأثرها على النفوس، فهناك علم البيان ودوره في تجنب التعقيدين اللفظي والمعنوي، وعلم المعاني، وبه يعرف الأديب كيف يتجنب الخطأ في تأدية المعنى، وكيف يورد الكلام وفق مقتضيات الأحوال.

وهناك علم البديع، ومعرفته تضفي على اللفظ البهاء والرواء، وعلم البديع هو العلم الموكول إليه تجميل الكلام وتحسينه.

•على هذا فقد كثرت المؤلفات التخصصية في علوم البلاغة، فقد ترك عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) كتابيه القيمين في تاريخ النقد والأدب والبلاغة وهما: «دلائل الإعجاز»، و «أسرار البلاغة». كما ترك السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ كتابه «مفتاح العلوم» الذي شغل العلماء منه القسم الثالث، والذي جعله قاصراً على البلاغة لمكانه من التحديد والتنظيم والتقسيم والتبويب، وتلاه بدر الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦ هـ صاحب كتاب «المصباح».

ثم جاء الخطيب القزويني (٧٣٩ هـ) صاحب كتابي «الإيضاح» و «التلخيص»، ثم حمزة بن يحيى العلوي (٧٤٩ هـ) مؤلف كتاب «الطراز»، وابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ) صاحب كتاب «الفوائد».

وجاءت مدرسة تلاميذ السكاكي والسبكي، وغيرهم.

---

(١) د. محمد عبد المنعم حفاجي ورفيقه ـ نحو بلاغة جديدة ـ ١٠٣.

ثم جاء السيوطي صاحب «عقود الجمان» (٩١١ هـ).

وبعد ذلك توقفت جهود علماء البلاغة عن الابتكار، واكتفوا بما تركه أسلافهم لهم، وظل الحال كذلك إلى أن جاءت النهضة الحديثة بمفاهيم بلاغية حديثة.

ففي العصر الحديث نادى أمين الخولي، وعبدالله العلايلي، وأحمد الشايب وآخرون كثر بالتجديد بالبحث البلاغي.

فذهب الخولي إلى أن تقسيم البلاغة إلى علوم ثلاثة هي: البيان، والمعاني، والبديع، لا طائل تحته، ولا جدوى منه، وعلى البحث البلاغي أن يشمل الكلمة والجملة، والفقرة، والقطعة الأدبية جميعاً، دون البحث عن الجملة أو الجملتين فحسب. كما ذهب إلى طريقة المعجم وأصحاب الفلسفة في البلاغة يجب اجتنابها، ليقوم مكانها دراسات فنية تعتمد على الإحساس بالجمال والتعبير عنه، وهذه الدراسات نجدها في علم النفس الذي يجب أن نبحث في أثره في التعبير الأدبي، وفي دراسة الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور من ناحية العمل الفني، وفي الخيال والذاكرة والذوق والإحساس، كما تحدث في كتابه «فن القول» عن مسائل كثيرة حول البلاغة ومشكلاتها، وذهب إلى أن فن القول يدور حول ثلاثة أقسام:

المبادىء ٢ ـ المقدمات. ٣ ـ البحوث.

فالمباديء لتعريفنا بفن القول وأهدافه وغايته وصلته بغيره من الدراسات.

والمقدمات التي تبحث دراسات علم النفس وغيره من حيث اتصال ذلك كله بالتعبير الأدبي.

والبحوث التي تسير في بحث الكلمة والجملة والفقرة والقطعة. ثم ندرس الأسلوب وأنواعه: من أدبي، وعلمي، وخطابي، وفكاهي، وتهكمي، ورمزي، وغير ذلك.

ويذهب أحمد الشايب إلى أن البلاغة يمكن حصرها في موضوعين رئيسين

هما: الأسلوب، والفنون الأدبية.

ففي الأسلوب ندرس الكلمة والصورة والجملة والعبارة، وأنواع الأسلوب.

وفي الفنون الأدبية ندرس مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتنسيقها، وقواعد هذه الفنون: القصة، والرسالة، والمناظرة والمقالة، والوصف، وغيرها.

وينادي العلايلي، بأن يقتصر البيان على بحوث التشبيه والحقيقة والمجاز والكناية.[1]

---

(١) د. محمد عبد المنعم خفاجي وزميله ـ نحو بلاغة جديدة ـ ١٧٧ـ١٧٨.

اللغة والبلاغة

اللغة: عبارة عما يتواضع عليه من الكلام، أو يكون توقيفياً. وتجمع اللغة على لغات، ولُغين، ولُغُون. وقد قيل في اشتقاقها: إنها مشتقة من قولهم: لغَوْت بالشيء: إذا أولعت به وأُغريت به. وقيل: بل هي مشتقة من اللَّغو، وهو النطق، ومَنه قولهم: سمعت لواغي القوم أي أصواتهم. ولغوْتُ: أي تكلمت، وأصله على هذا لُغْوَةٌ على وزن: فُعْلَةٌ.(1)

ويرى ابن سنان الخفاجي أن أصل اللغة مواضعة لا توقيف، وأن اللغة العربية تفضل سائر اللغات بأمور عدة أهمها:

أ ـ السعة: ومن تتبع اللغات جميعها لم يجد فيها لغة تضاهي اللغة العربية في كثرة الأسماء للمسمى الواحد، وهي مع السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني.

ب ـ إن في اللغة العربية من الاستعارات والألفاظ الحسنة الموضوعة ما ليس مثله في غيرها من اللغات، فإذا نقلت لم يجد الناقل ما يتوصل به إلى نقل تلك الألفاظ المستعارة بعينها وعلى هيئتها لتعذر مثلها في اللغة التي تنقل إليها.

جـ ـ ويرى ابن سنان من مزيتها أن أهلها العرب وقد اختارهم الله وكرمهم على غيرهم حين أنزل القرآن بلغتهم، فلو لم تكن أحسن اللغات لما اختارها عز وجل لغة لكتابه الكريم.

والنظام اللغوي هو مجموعة القوانين والأحكام التي تحكم اللغة، وتخضع لها

(1) ابن سنان الخفاجي ـ سر الفصاحة ـ ٤٨.

ألفاظها وعباراتها، ويلتزم بها أبناؤها التزاماً يعينهم على التفاهم وتبادل الخبرات.[1]

وتخضع اللغة إلى نظم معينة ومستويات مختلفة أهمها:

١ ـ المستوى التاريخي لمعرفة موطن اللغة الأول، وروابط القربى بينها وبين اللغات الإنسانية الأخرى، وتنوع لهجاتها، وتطور خطها وكتابتها.

٢ ـ المستوى الدلالي، لبحث تطور ألفاظها وما تفيده من المعاني.

٣ ـ المستوى الصوتي، لبحث لهجات اللغة وأصواتها، ومعرفة أنواع التطور الصوتي فيها، ودراسة الحروف وصفاتها، وأعضاء جهاز النطق وإخضاعها للملاحظة المباشرة، وتجلّى ذلك باهتمام العرب بعلمي التجويد والصرف.

٤ ـ المستوى الصرفي، ويهتم بمعرفة صياغة الأبنية من حيث المجرد والمزيد، والإعلال والإبدال، ومعرفة المشتقات وأوزانها.

٥ ـ المستوى النحوي، ويختص بضبط أواخر الكلمات حسب موقعها في الجمل، فإذا اختلف هذا الضبط، أدى إلى اختلاف المعنى، ومثال ذلك: قولهم: ما أحسنَ زيداً، وما أحسنُ زيدٍ؟ ما أحسنَ زيدٌ؟ فإن هذا التغيير في الحركات الإعرابية، إنما هو تغيير المعنى الذي تؤديه كل جملة مغايرة للجملة الأخرى.

ففي الجملة الأولى يتعجب من حسن زيدٍ، وفي الثانية يستفهم عن أي شيءٍ هو الحسن في زيد؟ قد يكون علمه أو خلقه، أو ....؟

أما في الجملة الثالثة فيستفسر عن الصنيع الذي قام به زيد، فقد يكون الإصلاح بين الناس، وقد يكون أمراً آخر.

ويختلف أداء اللغة في التعبير عن وظيفتها، أي في طريقة أدائها للمعاني.

---

(١) د. محمود أبو عجمية وزملاؤه ـ علوم البلاغة ـ ص٢٤.

(٢) د. أحمد أبو حاقة ـ البلاغة والتحليل الأدبي ـ ص١٩.

فقد يراد المعاني التي وضعت لها الألفاظ أصلاً، كقولنا: كتب زيدٌ درسَه، أي كتب الواجب الذي طلبه منه المدرس. وقد يكون المعنى الذي تؤديه اللغة معنى مجازياً أو تصويرياً، ويلجأ إليه الأديب، عندما يجد أن ألفاظ اللغة العادية عاجزة عن أداء المعاني التي يريد تصويرها ونقلها للآخرين بطريقة موحية مؤثرة. ولنوضح المقصود باللغة الموحية المعبرة والمؤثرة. نقرأ هذه الأبيات للشاعر خليل مطران عندما عاد إلى بلده بعلبك وزار قلعتها الشهيرة، وتذكر أيام صباه وشبابه، وما كان في تلك الربوع من أيام سعيدة، وهوى عذري لا تبارح ذكراه حنايا الفؤاد، قال:

هَمٌّ فجرُ الحياة بالإدبار ... فإذا مرَّ فهو كالآثار
والصِّبا كالكرى نعيمٌ، ولكنْ ... ينقضي، والفتى به غيرُ دارِ
يَغْنَمُ المرءُ عَيْشَهُ في صِباهُ ... فإذا بان عاش بالتذكار

إيهِ آثارَ بعلبكَّ سلامٌ ... بعد طول النوى وبُعْدِ المزارِ
وَوُقيتِ العفاءَ من حُجُراتٍ ... مُقْوياتٍ، أواهلٍ بالفخارِ
ذكَّريني طفولتي وأعيدي ... رَسْمَ عَهْدٍ عن أعيني مُتَوَارِ

مُستطاب الحالين: صَفْواً وشَجْواً ... مُسْتَحَبٌّ في النفع والإضرار
يوم أمشي على الطلول السواجي ... لا افترارٌ فيهنَّ إلاّ افتراري
نَزِقاً بينهن، غِرّاً، لعوباً ... لاهياً عن تبصُّرٍ واعتبار

يوم أخلو بهندَ نلهو ونزهو ... والهوى بيننا أليفٌ مُجاري
كفراشِ الرياض إذ يتبارى ... مَرَحاً، ما له من استقرار
نلتقي تارةً ونشرد أخرى ... كلُّ تِرْبٍ في مخبأٍ متدارِ

فإذا البُعْدُ طال طرفةَ عَيْنٍ ... حثَّنا الشوْقُ مؤذناً بالبدارِ
وعِداد اللِّحاظ نصفو ونشقى ... بجوارٍ، ففرقةٍ، فَجِوارِ
ليس في الدَّهر مَحْضُ سعدٍ ولكن ... تَلِدُ السعْدَ محنةُ الأكْدار

كلمـا نلتـقـي اعـتـنـقـنـا كأنـا ... جدُّ سَفْـرٍ عادوا من الأسـفـار[1]
قُبُـلاتٌ على عَفَـافٍ تحـاكـي ... قُبُـلات الأنـداء والأسـحـار
واشـتـبـاكٌ كضـمّ غصـنٍ أخـاه ... وكـلـثـم الـنـوار للنـوار

قلبُـنـا طاهـرٌ وليـس خَليّاً ... أطـهـرُ الـحـبِّ في قلوب الصغـار
كان ذاك الـهـوى سلامـاً وبـرداً ... فاغـتـدى حين شبَّ جذوة نَار

يعلق الكتور أحمد أبو حاقة على ذلك بقوله[1]: إذا نظرنا في هذه القصيدة وجدناها مكونة من ألفاظ، لكن هذه الألفاظ لم تؤخذ كيفما اتفق، وإنما اختارها الشاعر من بين آلاف الكلمات، ورتبها ترتيباً خاصاً، ونسقها بطريقة معينة لتتحقق الأغراض الآتية:

١ ـ التعبير عن الأفكار التي كانت تدور في ذهنه تعبيراً واضحاً خالياً من كل تقصير أو غموض.
٢ ـ الإيحاء بالحالة النفسية التي تكتنفه حين فكَّر في نظم هذه القصيدة.
٣ ـ تصوير ألوان الشعور والعواطف والذكريات وما اختلج في صدره لدى رؤية المرابع التي كانت ملعباً لصباه.
٤ ـ إقامة التكافؤ بين هذه المعطيات كلها وبين الألفاظ التي تعبر عنها، أو توحي بها، أو تصورها.
٥ ـ توفير الجمال الفني في بناء القصيدة، والتحام أجزائها وتسلسلها بحيث تخلو من الفجوات والاضطراب والتفكك.
٦ ـ إقامة المشاركة الوجدانية بين الشاعر وبين القراء أو السامعين.
٧ ـ خلق المتعة الفنية لدى القاريء، والتأثير فيه والحصول على إرضاء ذوقه.

---

(١) جد سَفْرٍ: مسافرون حقيقيون.
(٢) البلاغة والتحليل الأدبي ـ ص٢١.

فالقصيدة التي بين أيدينا ليست مجرد ألفاظ، وإنما هي فوق ذلك ألفاظ منتقاة، ومؤلفة تأليفاً خاصاً، وأفكار ووجدان وأنغام صوتية عذبة، وألوان من الشعور والعواطف، والأحاسيس والانفعالات النفسية، والذكريات والرؤى، وانسجام بين الألفاظ من جهة، والمضمون المعنوي من جهة أخرى، وهي فوق كل ذلك عمل فني، وصناعة شعرية قائمة على الخبرة والذوق والإتقان والدقة، وبعبارة أخرى هي عمل فني رائع تخالف الكلام العادي كل المخالفة، إنها شعر مؤثر موح.

أما المجاز، أو الاستعارة، فهي نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض:[1]

١ ـ أن يكون لشرح المعنى وفضل الإبانة عنه.
٢ ـ لتأكيد المعنى والمبالغة فيه.
٣ ـ الإشارة إلى المعنى بالقليل من اللفظ.
٤ ـ تحسين العرض الذي يبرز فيه.

والأمثلة على ذلك كثيرة. فمنه قول الله تعالى: ﴿**يوم يُكشف عن ساق**﴾[2]. فهذا القول أبلغ وأحسن وأدخل مما قصد له من قوله لو قال: «يوم يكشف عن شدة الأمر».

وقوله تعالى: ﴿**ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه**﴾[3]، أي ترخصوا، لأن قولك غمض عن الشيء أدعى إلى ترك الاستقصاء فيه عن قولك: رخص فيه. وكقول الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضاباً

وقولهم: ضحكت الأرض: إذا أنبتت، لأنها تبدي عن حسن النبات، كما يفترُّ الضاحك عن الثغر.

---

(١) أبو هلال العسكري ـ الصناعتين ـ ٢٩٥.
(٢) سورة القلم ـ الآية ٤٢.
(٣) سورة البقرة ـ الآية ٢٦٧.

فلغة الأدب[1]، شعراً أم نثراً، هي لغة مفعمة بالصور والأخيلة، وهي ذات أبعاد نفسية، لأن الأديب يودعها عاطفته وإحساسه وتجربته، لينقل عن طريقها هذه العاطفة وهذا الإحساس إلى الآخرين.

من هنا كانت لغة الأدب تختلف اختلافاً بيناً عن لغة التخاطب اليومية.

ولا شك أن ألوان البلاغة من تشبيه أو استعارة أو كتابة أو جناس تعين الأديب في توصيل تجربته إلى الآخرين، إلاّ أن هذه الألوان البلاغية لا تأتي متكلفة، بل عفو الخاطر، فالعملية الفكرية تستدعي هذه الأنماط البلاغية.

---

(١) د. محمود أبو عجمية ـ علوم البلاغة ـ ص٢٦.



ـ الفصل الثاني ـ

في تاريخ علوم البلاغة العربية



في تاريخ علوم البلاغة العربية

ترتبط حياة البلاغة بفن القول وضروبه المختلفة من شعر ونثر، وهما القسمان اللذان تندرج تحتهما كثير من الفنون التي تتخذ أداتها الكلمة، بما تحمل من جرس، وما تؤدي من معنى، وما تتعرض له في أثناء العصور المتتابعة من تطور دلالي يرتبط بحياة المجتمعات التي تتحدث هذه الكلمة، وتعتبرها وسيلة الإبانة عن الفكرة، ومعارض البراعة في البيان القولي.

ويظهر أن العرب كانوا يدركون تماماً أن فن القول يحتاج إلى تجربة دقيقة ومراس طويل، أخص خصائصها الرواية للآثار الأدبية، وفي ذلك تمرين للأذن على التفرقة الواعية بين جرس أنواع الكلمات لاختيار أحلاها جرساً، وأرقها صوتاً، وأعذبها نغماً. كما أن فيها إحاطة بالمعاني الأدبيبة التي توارد عليها القراء، وبالمنابع الفنية التي كانوا يصدرون عنها بعامة، ثم بالصور الأدبية التي كانوا يتخذونها معارض لما يودون التعبير عنه من مدح وهجاء وحماسة وغزل، إلى غير ذلك. وقد عرف في الجاهلية بعض المدارس الأدبية كمدرسة زهير وبنيه التي كانت تهتم بالأدب والشعر خاصة، كما روت كتب الأدب بعض الملاحظات النقدية والبلاغية حول الشعراء وأشعارهم عندما كانوا يتناشدون أشعارهم في الأسواق الأدبية.

لكن هذه الملاحظات ـ مهما يكن أمرها ـ لا تنهض أن تكون علماً، ولا هي مقدمات لنشأة البلاغة العربية، وإنما هي ملاحظات تعتمد على إحساس العربي بلغته وبطاقاتها في التعبير والبيان.[1]

---

(١) د. سيد أحمد خليل ـ المدخل إلى دراسة البلاغة العربية ـ ص٧٨.

ومنذ أن نزل القرآن أخذ العرب يحسون أن بيانهم قد تغير، وأن إحساسهم بلغتهم ينبغي أن ينهض على أسس أخرى غير تلك الأسس التي كانوا يقدرونها ويحرصون عليها.

فقد أحسوا أن الأسلوب القرآني أسلوب متميز لم يعرفوا نظيره من قبل، وأن أحكامه وتشاريعه قد خاطبت أسماعهم وهزت قلوبهم هزاً. وبالرغم من أن السور المكية ركزت على العقيدة وخاطبت العواطف، فإن السور المدنية خاطبت العقل ورسمت التشريعات التي يجب أن يقوم عليها المجتمع الجديد من أسرة إلى مجتمع، إلى بناء دولة تكفل العدل للجميع وتحقق الخير والسعادة لكافة أبناء هذا المجتمع المسلم الجديد.

ولقد كان تأثير القرآن عظيماً ببلاغته وأسلوبه المعجز على كل من سمعه، فهذا الوليد بن المغيرة عندما سمع الرسول ﷺ يقرأ آياً من القرآن، بهرته تراكيبه ومعانيه، فعاد إلى قومه يخبرهم بقوله: «يا قوم والله إني سمعت من محمد شيئاً عجباً، والله، إن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وما هو بقول بشر».

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما ذهب لزيارة أخته وسمعها تقرأ القرآن ذهل مما سمع، لأن هذه البلاغة لم يسمع بمثلها من قبل، وخاطبت عقله ووجدانه، فولّى مسرعاً إلى رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه.

وهذه الأخبار وغيرها كثير، تدلُّ على أن العربي أخذ يشعر أن لغته قد أصابها تغير كبير أمام بلاغة القرآن وتشريعه، ولا بد من دراسة هذا الكتاب والعناية به والحرص على الاطلاع على ما فيه، وقد انشغل المسلمون في العصر الأول الهجري بالفتوحات الإسلامية، إلّا أنها توقفت نوعاً ما في القرن الثاني الهجري، وأخذ الدارسون لهذا الكتاب يولونه جل عنايتهم لفهم أساليبه ومعانيه، وأولى تلك الدراسات التي نشطت، الدراسات اللغوية والتشريعية. ولقد كانت تلك الدراسات اللبنة الأولى في سبيل ظهور الدرس البلاغي، وفي مقدمتها نشأة النحو الذي يمثل

مجموع القواعد التي تحدد السلوك اللغوي في بناء الأسلوب وهندسة العبارة، وكذلك الدراسات اللغوية الأخرى المتعددة، كان هدفها العناية بالنص القرآني أداءً وفهماً، بحيث تمرن الألسنة على قراءته، والعقول على تدبر معانيه، والأذواق على الإحساس الدقيق بما حلّى به أسلوبه من ألوان الجمال القولي.

هذا أبو عبيدة معمر بن المثنى في حضرة الفضل بن الربيع وزير المأمون، قد استدناه حتى أجلسه إليه على فرشه، ويدخل رجل له هيبة فيجلسه الفضل إلى جانب أبي عبيدة، ويعرفه به قائلاً: هذا أبو عبيدة علّامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه، فيدعو الرجل للفضل، ويقرظه لفعله هذا، ثم يلتفت إلى أبي عبيدة قائلاً: إني كنت إليك مشتاقاً، وقد سألت عن مسألة، أفتأذن لي بأن أعرفك إياها؟ قال أبو عبيدة: هاتِ، فقال الرجل: قال الله عز وجل: **﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾**. وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف. فقال أبو عبيدة: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرىء القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم، أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه الرجل.

يقول أبو عبيدة: وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه. فلما رجعت إلى البصرة، عملت كتابي الذي أسميته «المجاز»، وكان ذلك سنة **١٨٨** هـ.[1]

وجاء بعد أبي عبيدة أبو عثمان الجاحظ، أحد شيوخ المعتزلة وأئمتهم والمتوفى سنة **٢٥٥** هـ، وله في كتابه «البيان والتبيين» مباحث كثيرة عن الفصاحة والبلاغة وتبيان ما حسن من السجع والبديع.

وبعد الجاحظ جاء الخليفة العباسي الشاعر العالم عبدالله بن المعتز، فألف

(١) د. عبده عبد العزيز قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ ١٣.

كتاباً مستقلاً في هذا الموضوع وأسماه «البديع»، وقد بحث في هذا الكتاب فنون عدة منها: فن الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي، وهي بحوث تعود إلى علوم البلاغة الثلاثة: البيان والمعاني والبديع. وابن المعتز من علماء القرن الثالث الهجري، وتوفي سنة **٢٩٦** هـ.

ومن الذين نهجوا هذا السبيل قدامة بن جعفر المتوفى سنة **٣٣٧** هـ، فقد جمع في كتابه «نقد الشعر» عشرين نوعاً بديعياً.

وبعد قدامة جاء معاصره أبو هلال العسكري المتوفى سنة **٣٩٥** هـ، وألف كتاب «الصناعتين» صناعة الشعر، وصناعة النثر. وقد بحث فيه البلاغة والفصاحة وفرق بينهما، وأشار إلى أن كل بليغ فصيح وليس العكس. وقد بحث في كتابه: الاستعارة، والكناية، والتعريض، والتذييل، والاعتراض في الباب المخصص للبديع، وهي ليست منه، وإن كان المفهوم في ذلك الوقت على البديع يشمل علوم البلاغة كلها.

ثم جاء ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب «العمدة في صناعة الشعر ونقده»، وقد سار في بحثه كابن المعتز وأبي هلال العسكري حيث خلط بين مفهومه للبديع بحيث يشمل مباحث علمي البيان والمعاني، وقد توسع في أنواع البديع حتى وصلت إلى تسعين نوعاً. وتوفي ابن رشيق سنة **٤٥٦** هـ.

وظل مفهوم البلاغة عاماً رائده الذوق والفن الرفيع عند النقاد القدامى الذين سبق الحديث عنهم، ونحا نحوهم في هذاالموضوع ابن طباطبا في كتابه «عيار الشعر»، والآمدي في كتابه «الموازنة بين الطائيين»، والقاضي الجرجاني في كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه»، وابن سنان الخفاجي في كتابه «سر الفصاحة»، وعبد القاهر الجرجاني في كتابيه «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة»، والزمخشري في تفسيره «الكشاف» مع اختلاف ليس بالكبير بين طرائقهم ومناهجهم(١).

---

(١) د. بكري شيخ أمين ـ البلاغة العربية في ثوبها الجديد ـ ج١ ـ ص٤٦.

ويرى الدكتور عبده قلقيلة[1] أن الزمخشري في كتابه «الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» هو أول من فصل فصلاً تاماً بين علمي المعـاني والبيان، بل إنه صاحب هذه التسمية في مقدمة كتابه بقوله: «إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم.

فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بزَّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلاّ رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علم المعاني، وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة».

ولما كان «الكشاف» كتاباً في التفسير لا في البلاغة، فقد كان طبيعياً أن تأتي الفنون البلاغية ـ كما كانت فيما سبقه وما لحقه ـ على حسب بحثها في سور القرآن الكريم، ومن خلال آياته، فلا ينتظر أن تكون مرتبة الترتيب الذي يشاهد في كتب البلاغة منذ السكاكي.

أما السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ، فقد ألف كتابه «مفتاح العلوم»، وجعله ثلاثة أقسام. بسط في القسم الثالث منه علوم البلاغة.

فقد جعل كل ما يتعلق بمطابقة الكلام لمقتضى الحال «علم المعاني»، وكل ما يخص إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه «علم البيان»، أمّا ما يتعلق بتحسين الكلام وتزيينه بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة فهو «علم البديع».

---

(١) البلاغة الاصطلاحية ـ ص١٦.

ولم يأت بعد السكاكي من أضاف إلى مباحث البلاغة إضافة ذات بال، وإنما معظم من جاء بعده، كان عملهم في أغلب الأحيان تلخيصاً، أو شرحاً.

لقد ابتدأ الفخر الرازي في كتابه «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» بتلخيص كتب الجرجاني تلخيصاً أخذ يبتعد بالبلاغة عن النصوص، ويقترب بها من الحدود والقوانين والأحكام والقواعد، ثم استكملت تقعيدها على يد السكاكي في كتابه «مفتاح العلوم».

ولعل القزويني المتوفى سنة **٧٣٩** هـ من أبرز الذين لخصوا «مفتاح العلوم»، وكان عالماً في الفقه والعربية.

ثم بدا للقزويني أن «تلخيصه»، لا يفي بالغرض، وأنه مختصر إلى حدٍّ كبير، فعاد لوضع كتاب آخر يشرح فيه التلخيص وأسماه «الإيضاح شرح تلخيص المفتاح».

وتتابع المؤلفون بعد القزويني يشرحون التلخيص، ويوضحون الإيضاح، ويدورون حول المفتاح، لا يزيدون البلاغة إلّا تعقيداً وتقعيراً.

«كانت البلاغة فناً يدرك بالحس الجمالي، أو كانت جمالاً يدرك بالذوق، فأصبحت على أيديهم أحكاماً أو معارف صاغوها في حدود وتعريفات».

كنت تقرأ النص أو تسمعه فتأخذك الروعة، ويكتنفك السحر، وقد لا تدري سبباً لإعجابك، ولا تعرف علة لسرورك، حتى يأخذ بيدك ابن الصنعة ـ كالجرجاني والزمخشري ـ فيقفك على موطن الجمال الذي استهواك، ويربط بينه وبين نفسك برباط من ذوقه وفكره، فإذا سبب الإعجاب مكشوف لعينيك، واضح أمام ناظريك، فتزداد فوق إعجابك بالجمال إعجاباً بمعرفة سرّه، ونشوةً بإدراك أمره. ثم أصبحت تقرأ النص فلا تشعر أمامه بشيء، ويأتي عالم البلاغة ليقول لك: إن فيه كذا وكذا نوعاً من البديع، فلا يزيد النص جمالاً في عينيك، ولا يغني شعورك بجديد، وإنما هي أسماء تعارفوا عليها، واصطلاحات وضعوها، يحللون النصوص ليستخرجوها

منها كما يستخرج عالم الكيمياء عناصر مادة يحللها دون أن يكون لتحليلهم صلة بالجمال، أو رابطة بالذوق». [1]

أما الدراسة الجيدة للبلاغة اليوم فيجب أن تسير في خطين:

الأول: سبر النصوص الأدبية وتعمقها وتذوقها لنصل إلى سر جمالها وروعة بنائها.

والثاني: المحافظة على القواعد التي ترسخت واستقرت في معظم الكتب الحديثة. وبهذا الجمع بين الطريقتين، طريقة أرباب الفهم والذوق، وطريقة أرباب العلم والقواعد، يمكن توفية هذا العلم بعض حقه. [2]

---

(١) د. بكري شيخ أمين ـ البلاغة العربية ـ ج١ ـ ص٤٧.

(٢) المرجع السابق ـ ص٥٠.



ـ الفصل الثالث ـ

التشبيه ـ قيمته .
الحقيقة والمجاز .
الاستعارة ، أنواعها ، بلاغتها .
الـوعي بالاستعـارة ، الاستعارة في القرآن الكريم ، الاستعارة في الشعر .
منهج القدماء في الدرس الأدبي للاستعارة .

التشبيه وقيمته

التشبيه لغة: التمثيل، يقال هذا شبه هذا ومثله.

والتشبيه اصطلاحاً: عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قصد اشتراكهما في صفة أو أكثر بأداة لغرض يقصد ه المتعلم.[1]

أو هو: إلحاق أمر بأمر آخر في صفة أو أكثر بأداة من أدوات التشبيه ملفوظة أو ملحوظة.[2]

أو هو: بيان أن شيئاً أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر بأداة هي الكاف أو نحوها ملفوظة أو ملحوظة.[3]

ومثال ذلك قول عمر بن أبي ربيعة يصف محبوبته:[4]

أبرزوها مثلَ المهاةِ تَهادى بين خمسٍ كواعبٍ أترابِ
وهي مكنونةٌ تحيَّرْتُ منها في أديم الخدَّين ماءُ الشباب
دُمْيةٌ عند راهبٍ ذي اجتهادٍ صوَّروها في جانب المحراب
ثم قالوا تحبها؟ قلتُ: بَهْراً عدد الرمل والحصى والترابِ

لقد أراد عمر أن يصف حبيبته وما يكنه لها من حب، فلم يعمد إلى نقل آيات الجمال فيها نقلاً جامداً لا حياة فيه، فقد يسيء مثل هذا النقل إلى الصورة الجميلة الراسخة في أعماق فؤاده، وقد لا يقع هذا النقل في نفس سامعه أو قارئه الموقع الحسن بسبب اختلاف الأذواق وتباين مشارب الناس، وإنما لجأ إلى فن التشبيه،

---

(١) أحمد الهاشمي ـ جواهر البلاغة ـ ٢٤٧.

(٢) د. عبده قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ ٣٦.

(٣) علي الجارم ومصطفى أمين ـ البلاغة الواضحة ـ ٢٠.

(٤) د. بكري شيخ أمين ـ البلاغة العربية ـ ج٢ ـ ص١٥.

وغمس أبياته بفيض عاطفته، وترك بعدئذ لغيره أن يتصور جمال فتاته على الصورة التي يتعشقها في المرأة.

لقد صور محبوبته بالمهاة (البقرة الوحشية) تتمايل رقة وجمالاً بين خمس أوانس مترفات جميلات، وفتاته محاطة بكل رعاية وتكريم، إنها بضة ناعمة الخدين.

لقد زاد في وصفها عندما شبهها بالدمية، أي تمثال العذراء الذي يحاط بكل رعاية وعناية من قبل المتعبدين النصارى، ففتاته مهاة تتهادى، ودمية في محراب، ثم نقل لنا إحساسه نحوها، واستغرب من استفهام الناس عن حبه لها، فأجابهم: إن حبه لها عدد الرمل والحصى والتراب.

وبذلك استطاع الشاعر أن يمثل لنا فتاته على أجمل صورة تتمثل في المخيلة، إذ أشرك قارئه بانفعالاته النفسية. وهذه المشاركة بين الصورة في شكلها، والعواطف في جوهرها من صميم العمل الفني.

فالبحث الأدبي على هذه الشاكلة متصل بعلم البيان أولاً، وبعلم النفس ثانياً، وبعلم الجمال ثالثاً، وبعلم النقد أخيراً، وهكذا يغدو بحث البلاغة بحثاً مكتملاً يزيد الأدب جمالاً، والصورة توضيحاً، والنفس تعلقاً ومشاركةً. ولمزيد من كشف الصور الفنية، وتبين معاني الروعة والجمال في التعبير الفني لا بد من الوقوف على جزئيات بحث التشبيه لمعرفة ألوانها وأنواعها وأقسامها:

ـ أركان التشبيه وطرفاه:

أركان التشبيه أربعة:

١ ـ المشبه.

٢ ـ المشبه به.

٣ ـ وجه الشبه.

٤ ـ أداة التشبيه.

ويسمي علماء البلاغة المشبه والمشبه به طرفي التشبيه وهما ركنان. أما وجه الشبه وأداة التشبيه فركنان لا غير.

والفرق بين الركن والطرف في التشبيه، أن الركن يمكن وجود التشبيه بدونه، بل إن حذفه أفضل من ذكره. أما الطرف فلا يمكن وجود التشبيه بدونه.

كما يقسم علماء البلاغة مباحث طرفي التشبيه إلى ثلاثة أقسام:
١ ـ من حيث مادتهما.
٢ ـ من حيث إفرادهما وتركيبهما. ٣ ـ من حيث تعددهما.

١ ـ طرفا التشبيه من حيث مادتهما:

ينقسم الطرفان إلى: أ ـ حسيين. ب ـ عقليين. جـ ـ مختلفين.

أ ـ حسيان:

فالطرفان الحسيان قد يكونان:
حسيين مبصرين: مثل: ﴿**كأنهن الياقوت والمرجان**﴾.
وقد يكونان حسيين مسموعين: صوت علي كقرع الطبول.
وقد يكونان مذوقين، مثل: عصير البرتقال كالعسل.
وقد يكونان ملموسين مثل: لها بشرةٌ كالحرير.

ب ـ الطرفان عقليان:

أي لا يدرك واحد منهما بالحس، وإنما بالعقل أو الوجدان، والمقصود بالوجدان، تلك المشاعر النفسية كاللذة والألم، والغضب، والرضى، والجوع، والشبع، والفرح، والترح، إلى غير ذلك مثل:
العلم حياةٌ.
الجهلُ موتٌ.
الجمالُ سحرٌ.

جـ ـ الطرفان مختلفان :

أي المشبه عقلي ، والمشبه به حسي ، وهذا هو الأصل في التشبيه مثل :

١ ـ القناعةُ كنزٌ لا يفنى .

٢ ـ الحكمة شجرة تنبت في القلب وتثمر في اللسان .

وقول الشاعر:

إنَّ حظي كدقيق في يوم ريحٍ نثروه
ثم قالوا لحُفاةٍ في أرضِ شوكٍ اجمعوه

وقد يكون الطرفان مختلفين، فالمشبه حسي والمشبه به عقلي ، أي عكس السابق .

قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني : انصرفت عن دار الصاحب قبيل العيد، فجاءني رسوله ومعه رقعة فيها هذان البيتان :

يا أيها القاضي الذي نفسي له مع قرب عهد لقائه مشتاقه
أهديت عطراً مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه

فقد شبه العطر وهي حسي يُشم، بطيب الثناء الذي هو معنوي .

٢ ـ طرفا التشبيه من حيث إفرادهما وتركيبهما :

أ ـ قد يكون الطرفان مفردين نحو:

لحظٌ كالسهم، وثَغْرٌ كالدُّر، وخدٌّ كالورد.

ونحو:

اللؤلؤ المنظوم كالثغر.

ب ـ وقد يكون الطرفان مركبين ، كقول المعري :

كأن سهيلاً والنجومُ وراءه صفوفُ صلاةٍ قام فيها إمامها

إن «سهيلاً» نجم من نجوم السماء، فهو في هيئته والنجوم الأخرى مصطفة خلفه يشبه إمام المسجد الذي وقف يصلي والناس وراءه صفوفاً متتابعة متراصة.

فالمشبه هنا مركب من سهيل والنجوم الأخرى وراءه، والمشبه به كذلك مركب من الإمام القائم والمصلون وراءه صفوف متتابعة متراصة.

ومثله قول بشار بن برد:

كأن مثارَ النقع فوق رؤوسنا وأسيافَنَا ليل تهاوى كواكبه

يصف بشار المعركة بين جيشين يقتتلان بالسيوف وقد انعقد عليهما غبار كثيف ملأ الجو قتاماً، وكان سبيله في هذا الوصف التشبيه المركب.

فالمشبه: مركب من النقع مثاراً فوق الرؤوس ومن السيوف اللامعة الصاعدة والنازلة تضرب رؤوس الأعداء وأجسامهم.

والمشبه به مركب من الليل، وهو دامس مظلم، ومن الكواكب اللامعة التي تتهاوى فيه.

جـ ـ قد يكون الطرفان مختلفين:

١ ـ أن يكون المشبه مفرداً، والمشبه به مركباً، كقولنا: هذه الزهرة كأنها خدُّ عذراء وقد سمعت كلمة جارحة.

٢ ـ أن يكون المشبه مركباً والمشبه به مفرداً، نحو:

الأرض في الربيع وقد ازدانت بكل بهيج، وأسالت عليها الشمس دفئها ونورها كأنها الليلة القمراء.[1]

٣ ـ طرفا التشبيه من حيث تعددهما:

ينقسم طرفا التشبيه (المشبه والمشبه به) من حيث تعددهما أو تعدد أحدهما

---

(١) د. بكري شيخ امين ـ البلاغة العربية ـ ج٢ ـ ص٢٤.

إلى أربعة أقسام: ملفوف، ومفروق، وتسوية، وجمع.[1].

أ ـ فالتشبيه الملفوف، هو جمع كل طرف منهما مع مثله، كجمع المشبه مع المشبه به، والمشبه به مع المشبه، بحيث يؤتى بالمشبهات معاً على طريق العطف، أو غيره، ثم يؤتى بالمشبهات بها كذلك، كقول الشاعر:

ليلٌ وبدرٌ وغصن شعرٌ ووجه وقَدُّ
خمرٌ وَدُرٌّ وورد ريقٌ وثغْرٌ وخَدُّ

وكقول امرىء القيس:

كأنَّ قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي

فقلوب الطير الرطبة، وقلوب الطير اليابسة: مشبهان. والعُنَّاب، والحشف البالي مشبهان بهما.

ب ـ التشبيه المفروق: فهو جمع كل مشبه مع ما شبه به، كقول الشاعر:

النشْرُ مسكٌ والوجوهُ دنا نيرٌ وأطرافُ الأكف عنم

جـ ـ تشبيه التسوية: هو أن يتعدد المشبه دون المشبه به كقوله:

شَعْرُ الحبيب وحالي كلاهما كالليالي
وثغره في صفاءٍ وأدمعي كاللآلي

٤ ـ تشبيه الجمع:

وهو أن يتعدد المشبه به دون المشبه، كقول الشاعر:

كأنما يبسمُ عن لؤلؤ منضَّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاحِ[2]

---

(١) أحمد الهاشمي ـ جواهر البلاغة ـ ٢٥٣.

(٢) أي كأن المحبوب يبتسم عن أسنان كاللؤلؤ المنظوم، أو كالبرد، أو كالأقاح. فاللؤلؤ هو =

ـ **أداة التشبيه :**

أداة التشبيه هي أي لفظة تشعر بالمشابهة والمماثلة، وقد تكون الأداة حرفاً أو اسماً أو فعلاً.

١ ـ أما حروف التشبيه فتنحصر في الكاف، وكأنَّ. نحو:

أنا كالماء إن رضيت صفاءً ... وإذا ما سخطت كنت لهيبا

وكقول امرىء القيس:

فيا لك من ليلٍ كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل

٢ ـ الأسماء: كل اسم يدل على التشبيه أو ينبيء به، كمثل، وشبه، ومحاك، ومشابه، ومضارع. قال المتنبي:

إن السيوفَ مع الذين قلوبُهم ... كقلوبهن إذا التقى الجمعان
تلقى الحُسامَ على جراءَةِ حدِّه ... مِثْلَ الجبان بِكَفِّ كل جبان

٣ ـ الأفعال: كل فعل يدل على التشبيه أو ينبىء عنه، نحو: ماثل، شابه، وحاكى، وضارع، وحسب، وظن، وخال، ورأى، ووجد، وعلم.
قال ولد القاضي عياض واصفاً تثني الزرع بفعل الرياح:

انظر إلى الزرع وخاماته ... يحكي وقد ولت أمام الرياح
كتيبةً خضراءَ مهزومةً ... شقائق النعمان فيها جراحِ

وقول البحتري:

إذا النجوم تراءت في جوانبها ... ليلاً حسبت سماءً رُكِّبت فيها
محفوفة برياضٍ لا تزال تُرى ... ريشَ الطواويس تحكيه ويحكيها

= الجوهر المعلوم، والبَرَد: هو حبُّ الغمام، والأقاح: بضم الهمزة وفتحها: هو زهر طَيب الرائحة، حوله ورق أبيض، ووسطه أصفر.

ـ أقسام التشبيه :

يقسم التشبيه من حيث الأداة ووجه الشبه في عملية التشبيه إلى خمسة أقسام هي :

١ ـ **التشبيه المرسل**: وهوَ ما ذكرت فيه الأداة نحو:
أنت كالاسد.

٢ ـ **التشبيه المُؤكَّد**: ما حذفت منه الأداة نحو:
الجوادُ في السرعةِ برقٌ خاطفٌ.

٣ ـ **التشبيه المجمل**: ما حذف منه وجه الشبه. كقول ابن الرومي في تأثير غِنَاءِ مُغَنٍّ:

فكأنَّ لذَّةَ صوته ودبيبها سِنَةٌ تَمَشَّى في مَفَاصِلِ نُعَّسِ

٤ ـ **التشبيه المُفصَّل**: ما ذكر فيه وجه الشبه نحو:
سِرْنَا في ليلٍ بهيم كأنه البحرُ ظلاماً وإرهاباً.

٥ ـ **التشبيه البليغ**: ما حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه نحو:
العلمُ نورٌ، والجهل ظلامٌ.

أما التشبيه المقلوب، فهو جعل المشبه به مشبهاً، والمشبه مشبهاً به، وهذا خلاف المقولة البلاغية التي تقول بأن وجه الشبه يجب أن يكون أظهر في المشبه به عنه في المشبه، وذلك كي يصح إلحاق المشبه بالمشبه به في هذا الوجه.

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر يمدح الخليفة المأمون:

وبدا الصباحُ كأن غرَّتَه وجهُ الخليفة حين يمتدحُ

وقول الآخر:

والبدر في كبد السماءِ كغادةٍ بيضاءَ لاحت في ثيابِ سَوَادِ

وكقول البحتري في وصف بركة المتوكل:

كأنَّها حين لجَّت في تدفقها يدُ الخليفةِ لمَّا سال واديها

٦ ـ التشبيه التمثيلي:

يسمى التشبيه تمثيلاً إذا كان وجه الشبه في صورةً منتزعة من متعدد. مثال ذلك قول الشاعر أبي فراس الحمداني:

والماء يفصل بين روض الز هر في الشطين فصلا
كبساطِ وَشْيٍ جَرَّدت أيدي القُيُون عليه نَصْلا

أراد الشاعر أبو فراس الحمداني أن يشبه صورة رآها بصورة تخيلها، يريد أن يشبه حال الجدول وهو بين الرياض بحال السيف فوق البساط الموشّى، فوجه الشبه هنا صورة لا مفرد، وهذه الصورة مأخوذة أو منتزعة من أشياء عدة، والصورة المشتركة بين الطرفين هي وجود بياض مستطيل حوله اخضرار فيه ألوان مختلفة.

ويقول المتنبي يمدح سيف الدولة الحمداني:

يهزُّ الجيش حولكَ جانبيه كما نفضت جناحيها العُقَابُ

يشبه المتنبي صورة جانبي الجيش: ميمنته وميسرته، وسيف الدولة بينهما، وما فيهما من حركة واضطراب، بصورة عُقَاب تنفضُ جناحيها وتحركهما. ووجه الشبه هنا ليس مفرداً ولكن منتزع من متعدد، وهو وجود جانبين لشيء في حال حركة وتموج.[1]

---

(١) علي الجارم ـ البلاغة الواضحة ـ ٣٥.

ـ التشبيه الضمني:

إذا جاء المشبه في صورة غريبة تدعو إلى إنكاره ورفضه، احتاج ـ في قبوله وبيان إمكانه ـ إلى أن نقيسه بنظير له مُسَلَّم به، وإذا تمَّ ذلك تلميحاً لا تصريحاً، وقفنا على ما يسمى في الاصطلاح البلاغي «بالتشبيه الضمني».[1]

ويعرفه آخرون: التشبيه الضمني، تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صورة التشبيه المعروفة، بل يلمحان في التركيب، وهذا الضرب من التشبيه، يؤتى به ليفيد أن الحكم الذي أُسند إلى المشبه ممكن.[2]

مثال ذلك قول المتنبي يمدح سيف الدولة الحمداني:

وإن تَفُقِ الأنامَ وأنت منهم ... فإن المسكَ بعضُ دمِ الغزال

فإن سيف الدولة عند المتنبي فاق الأنام الذي هو واحد منهم، وصار جنساً آخر.

ولما لم يكن ذلك مُسلَّماً به لا عقلاً ولا عادة، احتاج المتنبي إلى تقوية قوله، فألحقه بما لا نزاع فيه وهو المسك، فإنه قد خرج عن أصله وصار جنساً آخر حقيقةً، وقد وصل أبو الطيب بمنطق البلاغة، أو ببلاغة المنطق إلى أن ما ادعاه لممدوحه أمر ممكن.

ومثال آخر قول أبي فراس الحمداني:

سيذكرني قومي أذا جدَّ جدُّهم ... وفي الليلة الظلماءِ يفتقد البدر

يريد أبو فراس الحمداني أن قومه سيذكرونه حين تدلهم الخطوب، وتشتد الأزمات، وسوف يبحثون عنه فلا يجدونه، وقد دلل على صحة قوله أن الناس يتطلعون إلى السماء يفتشون عن البدر، ولا سيما في الليالي الحالكات، يرجون

---

(١) د. عبده قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ ص٥١.

(٢) جواهر البلاغة ٢٧٤، والبلاغة العربية ج٢ ـ ٥٣، والبلاغة الواضحة ـ ص٤٧.

منه النور، ليبصروا به طريقهم، أو لينير لهم ظلمات حياتهم وينقذهم مما يتخبطون فيه.

إن الشاعر لم يشبه حاجة قومه إليه أيام الأزمات كحاجة الناس إلى ضياء البدر في الليالي الحالكات، ولكن ألمح إلى هذا المعنى إلماحاً، وضمن بيته هذا التشبيه دون أن يُصرِّح بمشبه ومشبه به. (1)

ذلك هو التشبيه الضمني، لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة، بل يلمحان في التركيب.

وهذا اللون من التشبيه يؤتى به ليفيد أن الحكم الذي أُسند إلى المشبه ممكن.

مما سبق نستنتج أن للتشبيه روعةً وجمالاً وموقعاً حسناً في البلاغة، وذلك لإخراجه الخفيَّ إلى الجلي، وإدنائه البعيد من القريب. والتشبيه فوق ذلك يزيد المعاني رفعة ووضوحاً، ويكسبها جمالاً وفضلاً، ويكسوها شرفاً ونبلاً. (2)

وتنشأ بلاغة التشبيه من أنه ينتقل به من الشيء نفسه إلى شيءٍ طريف يشبهه، أو صورة بارعة تمثله.

وكلما كان هذا الانتقال بعيداً قليل الخطور بالبال، أو ممتزجاً بقليل أو كثير من الخيال، كان التشبيه أروع للنفس، وأدعى إلى إعجابها واهتزازها. فعندما نسمع المعري يصف نجماً تأخذك روعة التشبيه حين يقول:

يُسْرِعُ اللمحَ في احمرار كما تسرع في اللمح مُقْلَةُ الغضبان

فإن تشبيه لمحات النجم وتألقه مع احمرار ضوئه، بسرعة الغضبان من الشتبيهات النادرة التي لا تنقاد إلّا لأديب مبدع.

---

(1) د. بكري شيخ أمين ـ سر البلاغة العربية ـ ج٢ ـ ص٥٤.

(2) أحمد الهاشمي ـ جواهر البلاغة ـ ٢٤٧.

ومن ذلك قول الشاعر:

وكــأنَّ النجــوم بين دُجَــاهـا　　　سُنَــنٌ لاح بينــهـن ابـتــداعُ

فإن جمـال هذا التشبيه، جاء من شعـورك ببـراعـة الشاعر وحذقه في عقد المشابهة بين حالتين، ما كان يخطر بالبال تشابههما، وهما حالة النجوم في رُقْعَة الليل، بحال السنن الدينية الصحيحة متفرقة بين البدع الباطلة.

الحقيقة والمجاز

عرّف العلماء اللغة بأنها: أصواتٌ يُعَبِّرُ بها كل قوم عن أغراضهم.[1] وقد وضع أصحاب اللغة الألفاظ للدلالة على الذوات والمعاني. فلكل معنى ولكل ذات لفظ موضوع له. وإذا أُطلق اللفظ انصرف إلى ما استقر من مدلوله في الأذهان.

والحقيقة مشتقة من قول العرب: حق الشيءُ: وجب، والشيء المحقق: هو المحكم، تقول العرب: ثوب محقق النسج: أي محكمه. فكل لفظ دلَّ على المعنى الذي وضع له في أصل اللغة فهو الحقيقة. أما السكاكي فيعرفها بقوله:[2] الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع فهي الحقيقة.

أما ابن الأثير فيقول:[3] إن الحقيقة هي اللفظ الدال على موضوعه الأصلي، والحقيقة اللغوية، هي حقيقة الألفاظ في دلالتها على المعاني.

أما المجاز: فمشتق من قولهم: جاز الشيء، يجوزه: إذا تعداه. والمجاز عند البلاغيين: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي.

والعلاقة: هي المناسبة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، وقد تكون هذه العلاقة المشابهة بين المعنيين، وقد تكون غيرها.

فإذا كانت العلاقة المشابهة، فالمجاز (استعارة)، وإذا كانت العلاقة غير المشابهة (فالمجاز مرسل).

---

(١) ابن جني ـ الخصائص ـ ج١ ـ ص٣١.

(٢) مفتاح العلوم ـ ١٩٦.

(٣) المثل السائر ـ ج٥ ـ ص١٠٥.

والقرينة: وهي المانعة من إرادة المعنى الحقيقي، قد تكون لفظية وقد تكون حالية.[1].

وهذا التعريف يؤكد على عدد من الشروط:[2]

١ ـ لا بدَّ من علاقة تسوِّغ نقل الكلمة من الحقيقة إلى غير الحقيقة.
٢ ـ لا مانع أن تكون العلاقة قائمة على المشابهة أو على غير المشابهة.
٣ ـ لا بدَّ من قرينة ملفوظة أو ملحوظة تميز اللفظ الحقيقي من اللفظ المجازي.

فلو قلنا: «طلع البدر علينا من ثنيات الوداع».

لأدركنا أن «البدر» مجاز. والذي دفعنا إلى هذا الإدراك القرينة (من ثنيات الوداع)، فهي التي أوحت لنا أن المقصود من (البدر) إنسان جميل، حبيب إلى القلوب والعيون، وأن (البدر) الحقيقي لا يطلع من ثنيات الوداع، ولا من جنبات الوادي، وإنما يبقى في السماء كوكباً.

ـ **أقسام المجاز:**

يقسم البلاغيون المجاز إلى قسمين:[3]

١ ـ **المجاز العقلي**: ويكون في الإسناد، أي في إسناد الفعل، أو ما في معناه إلى غير ما وضع له. والسبب في تسميته بالمجاز العقلي أنه يتم في الإسناد لا في اللغة، ولما كان الإسناد يدرك بالعقل لا الوضع سمي مجازاً عقلياً

٢ ـ **المجاز اللغوي**: ويكون في نقل الألفاظ من حقائقها اللغوية إلى معانٍ أخرى بينها صلة ومشابهة.

والمجاز اللغوي يكون في الكلمات المفردة وفي التراكيب، وهو نوعان:

---

(١) أحمد الهاشمي ـ جواهر البلاغة ـ ٢٩٠.

(٢) د. بكري شيخ أمين ـ البلاغة العربية ـ ج٢ ـ ص٧٦.

(٣) البلاغة العربية ـ ج٢ ـ ص٧٨، والبلاغة الاصطلاحية ـ ص٦٠، وجواهر البلاغة ـ ص٢٩١.

أ ـ **الاستعـارة**: وهي مجـاز لغوي، تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي قائمة على المشابهة.

ب ـ **المجـاز المـرسـل**: وهو مجاز تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي قائمة على غير المشابهة.

الاستعارة

يرى أبو هلال العسكري أن الاستعارة: هي نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض. وذلك الغرض إمّا:[1]

١ ـ أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه.
٢ ـ تأكيد المعنى والمبالغة فيه.
٣ ـ الإشارة إليه بالقليل من اللفظ.
٤ ـ يُحَسِّن المعنى الذي يبرز فيه.

والاستعارة فرع من المجاز اللغوي وتُعَرَّف بأنها استخدام كلمة في غير معناها الحقيقي، لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، والقرينة تكون ملفوظة أو ملحوظة.

فالفرق الوحيد بين الاستعارة والمجاز المرسل يكمن في العلاقة وحدها. ففي الاستعارة قائمة على المشابهة، في المجاز المرسل على غير المشابهة.

وبعبارة أخرى، الاستعارة: تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه.

ولنضرب على ذلك مثالين لتشبيه واحد يبين الفرق بين التشبيه والاستعارة، وأيهما أبلغ أثراً في النفس:

يقول الشاعر:

هو البحر من أيِّ النواحي أتيتَهُ   فَلُجَّتُهُ المعروف والجود ساحله

ويقول شاعر آخر بنفس الموضوع:

---

(١) الصناعتين ـ ٢٩٥.

وأقبـل يمشي في البساط فما درى   إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقي

ويعلق الدكتور بكري شيخ أمين على ذلك بقوله: (٢)

الفرق بين الأسلوبين أن الشاعر الأول رفع من مقام صاحبه إلى مرتبة عالية، فقال: هو البحر، وأوحى لنا بشعور أو بغير شعور أن الممدوح شيء، والبحر شيء آخر. إنهما عالَمان منفصلان مستقلان، وإن حاول أن يزيل الحاجز الفاصل بينهما بنزع أداة التشبيه ووجه الشبه.

أما الشاعر الثاني، فقد نسي أو تناسى أن هناك رجلاً كريماً، وأبقى في الصورة عنصراً واحداً هو البحر، موحياً أن حديثه عن البحر ليس إلّا، وما البحر الذي كان يقصده إلّا رجلاً من لحم ودم، يسار إليه على بساط من سندس، وتُقَدَّم له آيات التحية والاحترام، وترفع إليه الشكاوى، أو تمدُّ إليه الأيدي راغبة في أُعطياته.

الشاعر الأول ركب مصعد التشبيه، فارتفع قليلاً بممدوحه الكريم، أما الشاعر الثاني فامتطى صاروخ الاستعارة وحلَّق بسيده الجواد، وشتان بين المصعد والصاروخ، أو بين التشبيه والاستعارة.

- أنواع الاستعارة:

الاستعارة مبنية على أساس التشبيه البليغ، أي مشبه ومشبه به، وبعبارة أخرى، الاستعارة: تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه، وهي ضرب من المجاز اللغوي. وللاستعارة أنواع هي:

١ - الاستعارة التصريحية:

هي كلمة أو جملة لم تستعمل في معناها الحقيقي، بل في معنى مجازي لعلاقة بين المعنيين هي المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، وفي الاستعارة التصريحية يحذف الشمبه ويبقى المشبه به.

---

(١) البلاغة العربية - ج٢ - ص١١٥.

وتفصيل ذلك بهذه الأمثلة:

قال المتنبي وقد قابله ممدوحه وعانقه:

فلم أرَ قبلي من مشى البحــرُ نحـوه ... ولا رجــلاً قامـت تعــانقــهُ الأُسْــدُ

فقد شبه المتنبي ممدوحه بالبحر، فحذف المشبه وأبقى المشبه به، فالعلاقة هي المشابهة، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي هي «مشى».

والاستعـارة الثـانية في البيت «الأسـد» التي يراد بهـا الشجعـان، فالعـلاقة المشابهة، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي «تعانقه».

وقال المتنبي يصف دخول رسول الروم على سيف الدولة:

وأقبــل يمشي في البســاط فمـا درى ... إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقي

فقـد شبـه سيف الدولة بالبحر بجامع العطاء، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به وهو البحر للمشبه وهو سيف الدولة على سبيل الاستعارة التصريحية، فالعلاقة المشابهة، والقرينة المانعة «فأقبل يمشي في البساط».

كمـا شبـه سيف الـدولة بالبدر بجامع الرفعة، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به وهو البدر للمشبه وهو سيف الدولة على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة «فأقبل يمشي في البساط».

وقول أحمد شوقي يرثي الشيخ عمر المختار، زعيم المجاهدين في ليبيا، بعد أن أسره المستعمرون الطليان وحكموا عليه بالموت، ورمَوْه من الطائرة وعمره يزيد على ثمانين عاماً:

ركــزوا رُفَــاتَــك في الــرمــال لواءَ ... يسـتـنـهض الــوادي صبــاحَ مســاءَ
يا ويحــهـم نصبــوا منــاراً من دمٍ ... يوحـي إلـى جيل الـغــد الـبغضــاءَ
يا أيهــا الــسيف الـمجــرَّدُ بالفــلا ... يكســو السيوف على الـزمـان مضـاءَ

شبـه الشاعر شرف الشهادة بالمنار، بجامع السمو والشرف في كل منهما، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه. فالعلاقة المشابهة، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي لفـظية «من دمٍ». ولمـا كان المشبـه به مصـرحـاً به، فالاستعارة تصريحية.

وفي البيت الثـالث شبّـه الشاعر أحمد شوقي الشهيد عمر المختار بالسيف بجامع الصلابة والقوة وبتر الأعداء في كل، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه. فالعلاقة المشابهة، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي لفظية (يا أيها)، ولما كان المشبه به مصرحاً به فالاستعارة تصريحية.

٢ ـ الاستعارة المكنية:

هي ما صرح فيها بلفظ المشبه، وحذف المشبه به، ورمز له بشيءٍ من لوازمه.

ومن أمثلة ذلك:

أ ـ قال تعالى على لسان زكريا: ﴿**ربِّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأسُ شيباً**﴾.

شبه الله عز وجل الرأس بالوقود، فأبقى المشبه، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيءٍ من لوازمه وهو «اشتعل» على سبيل الاستعارة المكنية. فالعلاقة المشابهة، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي لفظية «اشتعل».

ب ـ قال المتنبي:

ولمـا قلَّتِ الإبـلُ امتـطينـا ... إلى ابن أبي سليمـان الخُطُوبا

شبـه الشـاعر الخطوب بالإبل، فأبقى المشبه وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمـه «امتـطينـا» على سبيل الاستعارة المكنية. فالعلاقة المشابهة، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي لفظية وهي «امتطينا».

جـ ـ قال الشاعر دعبل الخزاعي:

لا تعجبي يا سلمُ من رجلٍ ضحكَ المشيبُ برأسه فبكى

فقد شبه الشاعر ظهور الشيب في الرأس بإنسان يضحك، فأبقى المشبه، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيءٍ من لوازمه «ضحك» على سبيل الاستعارة المكنية. فالعلاقة المشابهة، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي لفظية، وهي «ضحك».

إن جمال الاستعارة تصريحية كانت أو مكنية، تصير بين يدي الأديب الماهر أداة ساحرة، يخلب بها العقول، ويستولي على الألباب. فالأديب بها يسمو إلى آفاق ليس لها حدود، ولا لروعتها مدى.

٣ ـ الاستعارة التمثيلية:

الاستعارة التمثيلية تركيب استعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة معناه الحقيقي. فالاستعارة التمثيلية تشبيه حالة بحالة.

والأمثلة التالية توضح المعنى الذي نرمي إليه:

أ ـ قال المتنبي وهو يرد على الذين لم يتذوقوا شعره أو يستوعبوه:

ومن يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يجدْ مُرّاً به الماءَ الزلالا

إن المعنى الحقيقي لبيت المتنبي يدل على أن المريض يصاب بمرارة في فمه، إذا شرب الماء العذب وجده مراً. ولكن المتنبي لم يستعمله في هذا المعنى، بل استعمله فيمن يعيبون شعره، لا لأن الشعر ليس جيداً، وإنما لأن أذواقهم في فهم الشعر سقيمة وعليلة. فهذا التركيب مجازي، قرينته حالية، وعلاقته المشابهة.

فحال الذين لم يرزقوا الذوق السليم لفهم الشعر الرائع كحال المريض الذي يجد الماء الزلال مراً في فمه.

ب ـ إني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى.

فالقائل هنا لم يرد المعنى الحقيقي من أن الشخص يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وإنما أراد معنى مجازياً، هو حال من يتردد في أمر، كحال من يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، فالعلاقة المشابهة، والقرينة حالية.

جـ ـ أحَشْفاً وسوءَ كيلة.

وأصله أن رجلاً اشترى تمراً من آخر، فإذا هو رديء وناقص الكيل، فقال المشتري: أحشفاً وسوءَ كيلة!

فلم يرد المعنى الحقيقي للتركيب، وإنما أراد هذا القول ليدل به، لمن يظلم من وجهين. فالعلاقة المشابهة، والقرينة المانعة حالية.

د ـ أنت ترقم على الماء.

شبه حال من يلح في الحصول على أمر مستحيل بحال من يرقم على الماء، بجامع أن كلاً منهما يعمل عملاً غير مثمر. ثم استعمل التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية، والقرينة حالية.

وكل تركيب من هذا النوع يسمى استعارة تمثيلية.

ـ بلاغة الاستعارة:

يرى بعض البلاغيين أن بلاغة التشبيه آتية من ناحيتين:[1]

الأولى: من طريقة تأليف ألفاظه.

الثانية: ابتكار مشبه به بعيد عن الأذهان، لا يجول إلاّ في نفس أديب، وهب الله له استعداداً سليماً في تعرف وجوه الشبه الدقيقة بين الأشياء، وأودعه قدرة على ربط المعاني وتوليد بعض إلى مدى بعيد لا يكاد ينتهي.

أمّا الاستعارة فتستفيد من بلاغة التشبيه وتزيد عليه أن جوهرها يعتمد على تناسي التشبيه، ويحملك عمداً على تخيل صورة جديدة تنسيك روعتها ما تضمنه الكلام من تشبيه خفي مستور.

---

(١) جواهر البلاغة ـ ص٣٤٣ ـ والبلاغة الواضحة ـ ص١٠٥.

ويرى عبد القاهر الجرجاني : أن فضيلة الاستعارة الجامعة تتمثل في أنها تبرز البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدرة ونبلاً ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتست فيها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشـرف منفرد.

ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها: أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصَدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر[1].

ومن خصائصها كذلك، **التشخيص والتجسيد** في المعنويات، وبث الحركة والحياة والنطق في الجماد، فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جليلة.[2]

يقول الله تعالى في تصوير العذاب الذي أعده للكافرين به: ﴿**وللذين كفروا بربهم عذابُ جهنم وبئس المصير. إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور. تكاد تميَّزُ من الغيظ كلما أُلقي فيها فَوْجٌ سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير؟**﴾[3].

(فالشهيق) في الآية الكريمة قد استعير (للصوت الفظيع)، وهما لفظتان و (الشهيق) لفظة واحدة، فهو أوجز على ما فيه من زيادة البيان. و (تَمَيَّزُ) استعير للفعل (تنشق من غير تباين)، والاستعارة أبلغ، لأن التَّميُّز في الشيء هو أن يكون كل نوع منه مبايناً لغيره، وصائراً على جِدَتِه، وهو أبلغ من الانشقاق، لأن الانشقاق قد يحدث في الشيء من غير تباين.

واستعارة (الغيظ) (لشدة الغليان) أوجز وأبلغ في الدلالة على المعنى المراد، لأن مقدار شدته على النفس مُدْرَكٌ محسوس، ولأن الانتقام الصادر عن الغيظ يقع على قدر غيظه، ففيه بيان عجيب، وزجر شديد، لا تقوم مقامه الحقيقة البتة.

---

(١) أسرار البلاغة ـ ٣٢.　　(٢) أسرار البلاغة ـ ٣٣.

(٣) سورة الملك ـ الآيات ٦ ـ ٨.

فالاستعارات هنا قد حققت غرضين من أغراض الاستعارة هما: **الإيجاز والبيان**، كما تضافرت معاً في رسم نار جهنم وإبرازها في صورة تنخلع القلوب من هولها رعباً وفزعاً، صورة مخلوق ضخم بطاش، هائل جبّار مكفهر الوجه، عابس يغلي صدره غيظاً وحقداً.[1]

ومن خصائص الاستعارة، **المبالغة في إبراز المعنى الموهوم إلى الصورة** المشاهدة، كقوله تعالى في الإخبار عن الظالمين ومقاومتهم لرسالة رسوله: **﴿وقد مكروا مَكْرهم، وعند الله مكْرُهم، وإن كان مكْرُهم لِتَزُول منه الجبال﴾**.[2]

(فالجبال) هنا استعارة طوي فيها ذكر السمتعار له، وهو أمر الرسول. ومعنى هذا أن أمر الرسول وما جاء به من الآيات المعجزات قد شبه بالخيال، أي أنهم مكروا مكرهم لكي تزولَ منه هذه الآيات المعجزات التي هي في ثباتها واستقرارها كالجبال.

فجمال المبالغة الناشئة عن الاستعارة هو في إخراج ما لا يدرك إلى ما يدرك بالحاسة تعالياً بالمخبر عنه وتفخيماً له، إذ صُيِّر بمنزلة ما يُدْرك ويشاهد ويعاين.

ومن خصائص الاستعارة، الابتكار وروعة الخيال، فانظر إلى قول الشاعر أبي العتاهية في تهنئة المهدي بالخلافة:

أتته الخلافة مُنْقَادةً إليه تُجَرِّرُ أذيالها

تجد أن الخلافة غادةٌ هيفاء مدللة، فتن الناس بها جميعاً، وهي تأبى عليهم وتصدُّ إعراضاً، ولكنها تأتي للمهدي طائعة في دلال وجمال تجرُّ أذيالها تيهاً وخفراً.

هذه صورة لا شك رائعة، أبدع أبو العتاهية تصويرها، وستبقى حلوةً في الأسماع، حبيبةً إلى النفوس ما بقي الزمان.

---

(١) د. بكري شيخ أمين ـ البلاغة العربية ـ ج٢ ـ ص١٤٤.

(٢) سورة إبراهيم ـ الآية ٤٦.

لقد صدق رسول الله ﷺ إذ قال: «إن من البيان لسحراً».

ـ الوعي بالاستعارة:

الوعي بالاستعارة يكشف لنا عن قيمة استخدامها في النصوص الأدبية، فإذا كانت بلاغة الشتبيه آتية من ابتكار مشبه به يقرِّب لنا صفات المشبه، فإن الاستعارة أقوى أثراً في النفس، وبلاغتها تتحقق في أن تركيبها يدل على تناسي التشبيه، ويجعل القاريء قادراً على تخيل صورة جديدة ينسيك روعتُها ما تضمنه الكلام من تشبيه خفي.[1]

فاستمع إلى البارودي وهو يحيل الأفلاك وهي جمادات، والدهر وهو أمر معنوي إلى كائنات حية محسوسة إذ يقول:

إذا استلَّ منهم سيِّدٌ غَرْبَ سيفه   تفَزَّعت الأفلاكُ والتفت الدهرُ

فكل من (الأفلاك) و (الدهر) قد تحول بالاستعارة إلى كائن حي حساس.
فهاتان الاستعارتان قد أعانتا الشاعر على أن يرينا صورة الأجرام السماوية حية حساسة ترتعد خوفاً وفزعاً، وصورة الدهر إنساناً يلتفت عجباً وذهولاً كلما استلَّ سيد من قبيل الشاعر المشهود لهم بالشجاعة والفروسية سيفه من غمده.

واستمع إلى أبي فراس الحمداني وهو يقول:

ويا عِفَّتي. مالي؟ وما لك؟ كلما   هممتُ بأمرٍ همَّ لي منكِ زاجرُ

فما شأن عفة أبي فراس الحمداني؟ وما شأن الصراع الناشب بينها وبينه؟ إنها تستحيل بلمسةٍ من لمسات الاستعارة السحرية إلى إنسانٍ يقف موقف الزاجر كلما همَّ بأمر تراه العفة غير لائق به.

فهذه الصورة الرائعة الخلابة المؤثرة ما كانت لتكون لو أن الشاعر التزم في

---

(١) د. محمود أبو عجمية ورفاقه ـ علوم البلاغة ـ ص٦٧.

التعبير حدود الحقيقة، وقال: أنا لا أحاول ما يشين، لأني رجل عفيف.[1].

ويرى بعض البلاغيين أن الاستعارة مردها في قوتها وأصالتها إلى التوليد والتفنن في تقليب المعاني، واستهلاك طاقة اللغة في التعبير عن الفكرة. ومن هنا قسم عبد القاهر الاستعارة إلى ما هو خاص لا يتطاول إليه إلّا الفحول من الشعراء والكتاب الذين أوتوا حظاً من سعة العقل، وصفاء الذهن، وتفتح القريحة، وعمق الشفافية كما في قول الشاعر:

ولمـا قضينـا من مِنى كلَّ حاجـةٍ ومَسَّـح بالأركـان من هو ماسـح
أخـذنـا بأطـراف الأحـاديث بيننا وسـالت بأعنـاق المـطيِّ الأبـاطـحُ

فانظر إلى هذه الاستعارة اللطيفة التي يصوِّر بها الحجاج وقد أدوا مناسكهم ومسحوا أركان الكعبة، ثم عادوا إلى أهليهم، فأخذوا يتقاسمون أطراف الأحاديث بسعادة غامرة وفرحة كبيرة بعد أن أدوا فرضهم لله عز وجل. ويبدو جمال التصوير حين يجعل الأباطح وقد امتلأت بالركبان والناس على ظهورها تفيض بهم لكثرتهم بملابسهم البيضاء الجميلة، وكأنهم سيول غزيرة قد طغت بها تلك الأباطح.

إن جمال التصوير بهذه الاستعارة قد أضفى على التعبير سحراً وروعة تشعرك بجمال المنظر الأخّاذ لعودة الحجيج بعد أن أدوا مناسكهم.

أما الاستعارة العامة، فهي الاستعارات المألوفة التي توارد عليها الشعراء.

ولا شك أن الاستعارة الخاصة تحتاج إلى طاقات جديدة يكتسبها الشاعر أو الأديب من خبرته بالمعاني والكشف عنها.

وستبقى الاستعارة مجالاً رحباً يتسابق فيه البلغاء في رسم الصورة الجميلة وبيان قدرتها على الابتكار وروعة الخيال.

---

(١) د. بكري شيخ أمين ـ البلاغة العربية ـ ج٢ ـ ص١٤٩.

ـ الاستعارة في القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم هو كتاب الله البليغ المعجز الذي أرسله الله، تبارك وتعالى على رسوله الأمين محمد ﷺ بوساطة الوحي جبريل ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وقد جاء القرآن بليغاً ومعجزاً يخاطب العرب بشكل خاص، وقد عرفوا بالفصاحة والبلاغة، فبهرهم نظمه، وسحرتهم بلاغته، حتى قال قائلهم: والله إن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وما هو بقول بشر. ونزل إلى غير العرب ليكون عقيدة أمة ونظام حياة.

والقرآن كله بلاغة، من بلاغته الاستخدام الأمثل للاستعارة التي هي موضوع حديثنا، وسنورد بعضاً من هذه الاستعارات التي وردت في القرآن الكريم لنعرف جمال التصوير، وصورة الجمال في القرآن الكريم.

فمن ذلك قوله عز وجل في أول سورة إبراهيم عليه السلام: **﴿آلر، كِتَابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾**.(١)

فالظلمات والنور استعارتان للكفر والإيمان، أو للضلال والهُدى، والمستعار له محذوف، وكأنه قال: لتخرج الناس من الكفر الذي هو كالظلمة إلى الإيمان الذي هو كالنور.

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وقد مكروا مكرهم، وعند الله مَكْرُهُم، وإن كان مكْرُهم لِتَزُول منه الجبال﴾**.(٢)

(فالجبال) هنا استعارة، حذف المستعار له، وهو أمر الرسول محمد ﷺ، وما جاء به من الآيات والمعجزات، أي أنهم مكروا مكْرَهم، لكي تزولَ منه هذه الآياتُ المعجزاتُ التي هي في ثباتها واستقرارها كالجبال.

---

(١) سورة إبراهيم ـ الآية ١.
(٢) سورة إبراهيم ـ الآية ٤٦.

وعلى هذا ورد قوله تعالى: ﴿والشعراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوُونَ. ألم تَرَ أنَّهم في كل وادٍ يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾[1].

فاستعـار (الأودية) للفنون والأغراض من المعاني الشعرية التي يقصدونها، وإنما خصَّ الأودية بالاستعارة ولم يستعر الطرق والمسالك أو ما جرى مجراها، لأن معاني الشعر تستخرج بالفكرة والروية، والفكرة والروية فيهما خفاءٌ وغموض، فكان استعارة (الأودية) لها أشبه وأليق.[2]

ـ خصائص الاستعارة في القرآن الكريم:

الاستعارة فن جميل، وهي تكسب الأدب روعة وجمالاً وقوةً وحياةً إذا حسن استخدامها، وقد حاول القدماء والمحدثون بيان خصائصها في القرآن الكريم، وأول من فعل ذلك من القدماء «الرماني» في كتابه «النكت في إعجاز القرآن)، ومن المعاصرين الدكتور أحمد أحمد بدوي في كتابه (من بلاغة القرآن).

وأهم الخصائص التي تميزت بها الاستعارة في القرآن الكريم هي:[3]

١ ـ **حسن التصوير**: فليست الاستعارة مجرد كلمة استعملت لغير ما وضعت له، ولكنها مع ذلك تبرز ذلك المعنى المتحدث عنه بصورة خلّابة، فهي تجسم المعنى، وترهف الحس.

٢ ـ **اختيار الكلمات المناسبة**: إذ ليس كل كلمة تصلح لمثل هذه المواقف، فتختار الكلمات لتكون قوالب لهذه الاستعارات.

٣ ـ **اختيار الألفاظ اختياراً موضوعياً**: وقد نتج عن هذا الاختيار الإيجاز ذلك لأن اللفظة المختارة يستقل بها المعنى فلا يكون فضفاضاً، كما أنها تكون مستقرة

---

(١) سورة الشعراء ـ الآيات: ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦.

(٢) ابن الأثير ـ المثل السائر ـ القسم الثاني ـ الطبعة الثانية ـ دار نهضة مصر ـ ص٩٦.

(٣) د. محمود أبو عجمية ورفاقه ـ علوم البلاغة ـ ص٥٩.

في مكانها ليست قلقة ولا مضطربة.

٤ ـ **النظم**: ويتعلق هذا العنصر بالجملة التي ركبت فيها الاستعارة ولتوضيح ذلك نورد مثالاً من القرآن الكريم، علاوة على الأمثلة السابقة. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغهُ فإذا هو زاهق**﴾[(١)].

وردت هذه الاستعارة هنا في كلمتي (القذف) و (الدمغ)، واختيار هاتين الكلمتين كانت له مسوغاته وأسبابه، فالقذف هو الإلقاء بقوة، ولكنه إلقاء ما هو ضخم وكبير، والدمغ هو كسر الدماغ الذي تزول به الحياة. فالقذف إذاً لا بدَّ فيه من عنصرين هما: الإلقاء بشدة وعنف، والملقى لا بدَّ أن يكون ضخماً وعظيماً.

إن اختيار الكلمتين فيه إيجاز واختصار، ولكن ليس هذا فحسب، ألا ترى أن في اختيار الكلمتين كذلك بعثاً وقوة في نفوس المؤمنين، لكي يكونوا ذوي بأس، هذا من جهة، وإرشادهم من جهة ثانية كيف يصوبون سهامهم إلى عدوهم حتى يصيبوا بها مقتلاً. هذه الصورة الموجعة المحسة اقرأها بتمعن، يبهرك النظم الذي جاءت فيه هذه الاستعارات.[(٢)]

ـ الاستعارة في الشعر العربي:

بعد أن عرفنا الاستعارة ودورها في إكساب الأدب شعره ونثره، جمالاً وروعة، وبعد أن عرفنا أنواعها وخصائصها، ووجودها في القرآن الكريم وفي كلام العرب البلغاء، علينا أن نورد بعض الأمثلة من أشعار العرب، لندرك كيف ولجوا هذا الميدان وصالوا فيه حتى جاء بكل معنى جميل.

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر مسكين الدارمي[(٣)] من شعراء الحماسة:

(١) سورة الأنبياء ـ الآية ١٨.

(٢) د. فضل حسن عباس ـ البلاغة، فنونها وأفنانها ـ ص٢١٥.

(٣) اسم ربيعة بن عامر، يصل نسبه إلى دارم بن مالك، وسمي مسكيناً لقوله: =

لحافي لحافُ الضعيف والبيت بيته ولم يُلْهِنِي عنه غزالٌ مُقَنَّعُ
أُحَدِّثُهُ إن الحديثَ من القِرَى وتَعْلَمُ نَفسي أنه سوف يهجعُ

ومن ذلك قول أبي تمام من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد الطائي، ومطلعها:

يا بُعْدَ غايةِ دمع العين إن بعدوا هي الصبابةُ طول الدهر والسهدُ

إلى أن يقول:

لما غدا مُظْلِمَ الأحشاءِ من أَشَرٍ أسكنْتُ جانحتيْه كوكباً يَقِدُ[1]

فالكوكب استعارة للرمح.

وكذلك قوله:

كم أحرزتْ قُضُبُ الهنديِّ مُصْلَتَةً تهتزُّ من قَضُبٍ تهتزُّ من كُثُبِ[2]

فالقضب والكثب استعارة للقدود والأرداف.

ومن ذلك قول المتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة الحمداني:

وأصبحتْ بِقُرى هِنزيطَ جائلةً ترعى الظُّبَا في خصيبٍ نبتُهُ اللَّمَمُ[3]
فما تركْنَ بها خُلْداً له بصرٌ تحت التراب، ولا بازاً له قَدَمُ
ولا هِزَبْراً له من دِرْعِهِ لِبَدٌ ولا مهاةً لها من شِبْهها حَشَمُ[4]

= انا مسكين لمن انكرني ولمن يعرفني جد نطق

وهو شاعر شريف إسلامي، كان في عهد بني أمية، وهو سيد من سادات قومه، هاجى الفرزدق ثم تكافأا.

(١) الأشر: البطر وكفر النعمة، والجانحة: الضلع.

(٢) قضب الهندي: السيوف، ومصلتة: مسلولة.

(٣) هنزيط: من بلاد الروم. الظُبا: جمع ظُبَّة، وهي ظبة السيف، اللمم: جمع لمة وهي ما ألمَّ بالمنكب من الشعر. وجائلة: تجول للغارة.

(٤) الهزبر: الأسد. المهاة: بقر الوحش، الحشم والخدم: حاشية الإنسان العظيم.

وهـذا من المليح النـادر، فالخُلْدُ: استعـارة لمن اختفى من الأعداء تحت التراب خوفاً من سيف الدولة وجنـوده. والباز: استعارة لمن طار هارباً. والهزبرُ: استعارة للمحارب من الأعداء، والمهاة: استعارة للنساء من السبايا.[1]

ومن هذه الأمثلة نرى أن بلاغة الاستعارة من حيث الابتكار وروعة الخيال، وما تحدثه من أثر في نفوس سامعيها فهي مجال فسيح، وميدان لتسابق المجيدين من فرسان الكلام.

ـ منهج القدماء في الدرس الأدبي للاستعارة:

أـ بحوث اللغويين والرواة:

نشط البحث اللغوي عند **أبي علي الفارسي** وتلميذه **ابن جني** المتوفى سنة **٢٩٢** هـ، ولكنه نشاط يتصل بالكشف عن فقه اللغة ومعرفة أسرارها وما له صلة أيضـاً بالبلاغة والفصاحة، ثم جاء بعده أحمد بن فارس المتوفى سنة **٣٩٥** هـ، فسار على نهجه وألف كتابه «الصاحبي»، كما سار الثعالبي المتوفى سنة **٤٣٠** هـ على هذا النهج في كتابه «فقه اللغة وأسرار العربية».

ينقل السيوطي المتوفى سنة **٩١١** هـ عن ابن جني تعريفه للحقيقة والمجاز بقوله[2]: الحقيقة: ما أُقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة، والمجاز: ما كان بضـد ذلك، وإنما يقع المجاز، ويعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة هي: الاتساع، والتوكيد، والتشبيه، فإن عدمت الثلاثة تعيَّنت الحقيقة.

وجميع أنواع الاستعارات داخلة تحت المجاز، كقول كثير:

غمـر الـرداءَ إذا تبسَّم ضاحكـاً غَلِقَتْ لضحكتـه رقـاب المـال

---

(١) ابن الأثير ـ المثل السائر ـ القسم الثاني ـ ص١٠٨.

(٢) د. أحمد عبد السيد الصاوي، مفهوم الاستعارة ـ ص١٣.

أما **الثعالبي** فإنه يسوق أمثلة كثيرة في كتابه «فقه اللغة وأسرار العربية» مثل: الأدب غذاء الـروح، والنار فاكهة الشتاء، والصبر مفتاح الفرج، والشمس قطيفة المساكين، ويتصورونها من الاستعارة الخالصة، في حين أنها تشبيه بليغ.

وهكـذا شارك اللغـويون في الملحـوظات البلاغية في ثنايا تعليقاتهم على نصوص الشعر، وآي الذكر الحكيم، ثم نرى اللغويين والنحاة وفي مقدمتهم ابن قتيبـة المتـوفى **٢٧٦** هـ، والمبـرد المتوفى **٢٨٥** هـ وغيرهم ينشطون على ضوء سابقيهم، متـأثـرين خطاهم مفـردين مباحث خالصة يفسحون فيها الملاحظات البلاغية من الشعر والقرآن الكريم.

وأول هؤلاء **أبـو عبيدة معمر بن المثنى** المتوفى سنة **٢١٠** هـ وكتابه «مجاز القرآن» أبان فيه عن كيفية التوصل إلى فهم المعاني القرآنية باحتذاء أساليب العرب في الكلام.

لقد أطلق أبو عبيدة لفظ المجاز، وأراد به معناه الواسع الذي عرفه من الوضع اللغوي، فهو عنده «الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته، وهذا مخالف لما عرفه علماء البلاغة فيما بعد من أنه استعمال اللفظ أو التركيب في غير المعنى الذي وضع له مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي».

أمّا موقفه من الاستعارة، فإنها ضمن كلمة مجاز، فهو يطلق الكلمة على معنى الاستعـارة في قوله تعالى: ﴿**يثبت به الأقـــدام**﴾ أي يفرغ عليهم الصبر، وينزله عليهم فيثبتون لعدوهم. وكاستعارة «رمى» للنصرة والصنع، ففي قوله تعالى: ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾ أي ما ظفرت، ولا أصبت ولكن الله أظفرك. [1]

أما **ابن قتيبة** فلم يفهم المجاز على أنه التفسير والتأويل والجواز إلى المعنى كما فهمه أبو عبيدة من قبل، ولكنه فهمه على أنه المجال المقابل للحقيقة، أو الـذي تقوم العلاقة فيه على التشبيه، وهو ما سماه ابن قتيبة نفسه «الاستعارة».

---

(١) أبو عبيدة ـ مجاز القرآن ـ ٦٤.

لذلك فقد عقد لها فصلاً بعد باب المجاز في كتابه «تأويل مشكل القرآن».

ولكنه لم يتحدث عنها تحت اسم البيان أو البديع، وإنما تكلم عنها تحت المشكل من آيات القرآن وألفاظه وتأويله لذلك المشكل، هذا لأنه وجد من ألفاظه ما أشكل على المفسرين فأوله ووضحه.[1]

ويرى الدكتور أحمد الصاوي أن[2] «كتاب قواعد الشعر» لثعلب، أبي العباس أحمد ثعلب المتوفى سنة ٢٨١ هـ أول محاولة مستقلة لدراسة بيان الشعر، بعد أن ظل الباحثون يعتقدون أن كتاب «البديع» لابن المعتز يحوز هذا الفضل وحده.

لقد تحدث ثعلب في هذا الكتاب عن «الاستعارة»: وهي أن يستعار للشيء اسم غيره، أو معنى سواه». كقول امرىء القليس في وصف الليل:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف إعجازاً وناء بكلكل

وقول زهير:

فظل يناجي الأرض لم يكدح الصفا به كدحة والموتُ خزيانٌ ينظرُ

ولا عين للموت.

وقول أبو ذؤيب الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

ولا ظفر للمنية.

ودراسة ثعلب للاستعارة تتضمن زيادة عن الإبانة عن المعنى، وحسن الصورة، والناحية التطبيقية التي تتلخص في الكشف عن مواطن الجمال من تلك الشواهد ووضحها.

---

(١) د. أحمد الصاوي ـ مفهوم الاستعارة ـ ٢٢.

(٢) مفهوم الاستعارة ـ ٣٣.

ب ـ بحوث النقاد والبلاغيين :

لقد بدأ يتضح مفهوم الاستعارة عند هؤلاء النقاد والبلاغيين بصورة أكثر وضوحاً، وفي مقدمة هؤلاء **الجاحظ** المتوفى سنة **٢٥٥** هـ. فقد تكلم عن الاستعارة على نهج أدبي ضمن مبحثه عن المجاز والتشبيه، وقد أطلق كلمته «المجاز» على كل الصور البيانية، عندما تناول كثيراً من آي القرآن الكريم للبحث عما فيها من صور المجاز، يتضح ذلك في الباب الذي كتبه تحت عنوان (باب آخر في المجاز والتشبيه). ففي قوله تعالى: **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾**[١]. وقوله تعالى: **﴿أكّالون للسحت﴾**.[٢]

يعلق الجاحظ على هاتين الآيتين الكريمتين بقوله: ويقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة، ولبسوا الحلل، وركبوا الدواب، ولم ينفقوا منها درهماً واحداً في سبيل الأكل.[٣]

وقوله تعالى: **﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً، وسيصلون سعيرا﴾**[٤].

وهذا مجاز آخر.

فلفظ «الأكل» وجدها الجاحظ تستعمل حقيقةً ومجازاً، وتستعمل في معناها المعروف عن الناس، وتستعمل مجازاً حين لم يرد بها الأكل الحقيقي، وإنما يراد بها ما يلابس الأكل من الإنفاق والإخفاء، وإضاعة المال، وذهابه كما يذهب الطعام في الجوف فلا يبقى منه بقية.[٥]

إذن فالمجاز عند الجاحظ هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له. وبذلك يعتبر الجاحظ أول مصنف عربي أشار إلى المجاز والاستعارة إشارات في كتابيه «البيان والتبيين» و «الحيوان». وبذلك يعتبر أول رائد للبلاغة العربية بمعناها

---

(١) سورة النساء ـ الآية ١٠.
(٢) سورة المائدة ـ الآية ٤٢.
(٣) الحيوان ـ ج٥ ـ ص٢٠.
(٤) سورة البقرة ـ الآية ٢٤٩.
(٥) أحمد الصاوي ـ مفهوم الاستعارة ـ ص٣٦.

الاصطلاحي الذي أخذ يتطور على مر الزمن حتى بلغ قمته على يد السكاكي والقزويني، وغيرهم من أعلام البلاغة المتأخرين.[1]

وزيادة في التوضيح فلنسمع تعليق الجاحظ على قول الشاعر:

وطفقت سحابة تغشاها ... تبكي على عِرَاصِها عيناها

يقول الجاحظ: «وجعل المطر بكاءً من السحاب على طريق الاستعارة، وتشبيه الشيء باسم غيره إذا قام مقامه»[2]. وهو في هذا المثال يلحظ الاستعارة مباشرة دون أن يخلطها بلون بياني آخر.

ويلي الجاحظ ابن المعتز (**أبو العباس عبدالله بن المعتز**)، الخليفة العباسي المتوفى سنة **٢٩٦** هـ صاحب كتاب «البديع». وقد قسم فنون البديع الرئيسة إلى خمسة أقسام هي: الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على تقدمها، والمذهب الكلامي. ويعرفها بقوله: «إنها استعارة الكلمة لشيءٍ لم يعرف بها من شيءٍ قد عرف بها»[3]. ويضرب لذلك أمثلة من القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿**واخفض لهما جناح الذل من الرحمة**﴾. وقوله: ﴿**واشتعل الرأس شيباً**﴾. وقوله: ﴿**أو يأتيهم عذاب يوم عظيم**﴾. وقوله: ﴿**وآيةٌ لهم الليل نسلخ منه النهار**﴾[4].

ومن الاستعارة قول امرىء القيس:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله ... عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلتُ له لما تمطَّى بصلبه ... وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وقول زهير بن أبي سلمى:

---

(١) مفهوم الاستعارة ـ ٣٧.

(٢) البيان والتبيين ـ ج١ ـ ص١٥٢.

(٣) البديع ـ ص٢٤.

(٤) البديع ـ من (ص١٧ ـ ٢٧).

صحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطلُه وعُـرِّي أفـراسُ الـصِّبـا ورواحـله

وقول النابغة الذبياني :

وصـدرٍ أراحَ الـليلُ عازِبَ همِّـه تضـاعف فيه الحـزن من كل جانب

يعلق الدكتور أحمد الصاوي على ذلك بقوله: [1] هذا كله يجعلنا نقول مع الدكتور محمد زغول سلام : إن ابن المعتز لم يترك سوى أسماء وتعريفات، وهو بذلك يجني على تلك الفنون التي حددها في تعريفه، وأولها الاستعارة، فدمغها جميعاً بالشكلية، ووجه همَّ علماء البلاغة إلى ظاهر الدراسة الأدبية فتركوا اللبَّ، وأُعجبوا بالجزئيات فحسب.

بعـد ابن المعتـز يأتي **محمـد بن أحمد بن طباطبا** المتوفى سنة **٣٢٢ هـ**، ومصنفه «عيار الشعر».

تحدث ابن طباطبا في كتابه عن التشبيه، وكأنه يعده جوهر الشعر ولبه، ومبحثه فيه يعد أهم مبحث في كتابه، يتصل بالبلاغة وتطور البحث في مسائلها وما يصدق على التشبيه فيما أورده يصدق على الاستعارة، فما هي إلّا تشبيه حُذِفَ أحد طرفيه المشبه أو المشبه به.

ثم يأتي **أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي** المتوفى سنة **٣٧١ هـ**، صاحب كتاب «الموازنة بين الطائيين».

إن الآمدي اعتمد في موازنته على إيراد النصوص الأدبية محللاً إياها، مبيناً دقائقها الفنية، وتشريح ما قد يكون فيها من عيوب، منتهياً إلى ما يجب أن تكون عليه الاستعارة، مؤيداً طريقة العرب في تأليفها، وأن الحدود التي تعرف بها الاستعارات والتشبيهات الجيدة قد شغلت كافة النقاد في كل الآداب، والنظر إلى الآمدي الذي كان يعجب بالشعر المطبوع، يحس أن مقياس جودة الاستعارة عنده

---

(١) مفهوم الاستعارة ـ ص٤٢ .

هو القرب وعدم الإغراب مع صدق الدلالة.[1]

وبعد الآمدي جاء **القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني** المتوفى سنة **٣٩٢** هـ، حيث مضى في كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه» يتحدث عن البديع وصوره قائلاً: إنها كانت تأتي قليلة، وبدون تعمد وتكلف في أشعار الجاهليين والإسلاميين، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين من العباسيين أكثروا منه إكثاراً. ويأخذ في الحديث عن ألوان البديع، فيبدأ بالاستعارة بوصفها أول فنٍ من فنون القول له أهميته في تعريفها بقوله:[1]

«إنما الاستعارة ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها، ملاكها تقريب الشبه، ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى، حتى لا توجد بينهما منافرة، ولا يتبين في إحداهما إعراض عن الآخر».

والجرجاني في هذا التعريف يلتقي بالآمدي التقاءً واضحاً، إذ يطلب في الاستعارة أن تظهر فيها المناسبة بينة بين المستعار له والمستعار منه. ويقول: إن ملاكها تقريب الشبه، وائتلاف ألفاظ صور الاستعارة مع معانيها حتى لا توجد منافرة، وحتى يحدث الانسجام حسناً في الصورة، وتوضيحاً للفكرة، فلا إعراض من إحداهما عن الأخرى، وحتى لا يكون هناك تكلف يؤدي إلى الإبهام والغموض في المعنى المراد.

وهذا الشرط في حقيقته (الصلة بين المشبه والمشبه به) هو الفيصل في جمال الاستعارة أو قبحها، وهو الأمر الذي أخذه على أبي تمام في عدم مراعاته له، لذلك قبحت استعاراته.[2]

وبحث الاستعارة **أبو هلال العسكري** المتوفى سنة **٣٩٥** هـ في كتابه

---

(١) المرجع السابق ـ ص٥٢. (٢) الوساطة ـ ص٤٠.

(٣) مفهوم الاستعارة ـ ٥٤.

«الصناعتين»، ويعرفها بقوله: «الاستعارة نقل العبارة من موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إمّا أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة». [١]

ويقارن أبو هلال العسكري بين الاستعارة المصيبة وغير المصيبة بقوله: [٢] لولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالاً، والشاهد على أن للاستعارة المصيبة من الموقع ما ليس للحقيقة أن قول الله تعالى: ﴿**يوم يكشف عن ساق**﴾ أبلغ وأحسن وأدخل مما قصد به من قوله لو قال: يوم يكشف عن شدة أمر، وإن كان المعنيان معنى واحداً. ألا ترى أنك تقول لمن يحتاج إلى الجد في أمره: شمِّر عن ساقك فيه، واشدد حيازيمك له، فيكون هذا القول منك أوكد في نفسك من قولك: جِدْ في أمرك.

وأخيراً يمكن القول: إن باب الاستعارة عند أبي هلال يعد معرضاً أدبياً للتعبير المصور بالاستعارة في الشعر العربي ونثره، عندما يضع المثال الفني أمام الكتاب والشعراء ليترسموه في أدبهم، ويتخذوه وسيلة تعينهم على الإجادة العملية في فني الشعر والنثر، فهو إذن من مدرسة ابن المعتز.

ثم يأتي **الشريف الرضي** المتوفى سنة ٤٠٦ هـ في كتابه «مجاز القرآن»، فقد وضح فيه ذوقه الأدبي، وانطباع المعنى الاستعاري في ذهنه عندما يقول: في قوله تعالى: [٤] ﴿**فالقُ الإصباح، وجعل الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم**﴾. وهذه استعارة، والمعنى شاق الصبح، ومستخرجه من غسق الليل، وقوله سبحانه وتعالى: (فالق الإصباح) أبلغ من قولنا: (شاق

(١) الصناعتين - ط١ - ص٢٠٥

(٢) الصناعتين - ص٢٠٦.

(٣) د. مصطفى الصاوي الجويني - البلاغة والنقد بين التاريخ والفن - ص١٣٧.

(٤) سورة الأنعام - الآية ٩٦.

الإصباح)، إذ أن قوة الانفلاق أشد من قوة الانشقاق، ألا تراهم يقولون: انشق الظفر، وانفلق الحجر.(١)

ويرى الدكتور الجويني أن هدف الشريف الرضي من بحثه في المجاز القرآني هو التفسير الأدبي للقرآن، وخاصة أن الشريف واحد من فحول الشعراء، كما يرى الدكتور الجويني أن الشريف الرضي يبين وهو يفسر معنى الآي أن الاستعارة تدور مع التفسير، فقد يسلك تفسير آية ما في سلك الاستعارات، وقد يخرجها تأويل عن الاستعارة.

يقول في قوله تعالى: ﴿**وجعل الليل سكناً**﴾ استعارة، ومعناها على أحد التأويلين أنه سبحانه وتعالى **جعل الليل** بمنزلة المحبوب الذي تستكين إليه النفوس وتحبه القلوب، يقال: فلان سكن فلان على هذا المعنى، والتأويل الآخر يخرج الكلام عن معنى الاستعارة، وهو أن يكون المراد أنه تعالى: **جعل الليل** مَظِنَّةً لانقطاع الأعمال والسكون بعد الحركات.(٢)

ثم جاء **أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني** المتوفى سنة ٤٥٦هـ، فتناول الاستعارة في كتابه «العمدة في صناعة الشعر ونقده». وقدَّم له بحديث عن المجاز قائلاً:

العرب كثيراً ما تستعمل المجاز، وتعده من مفاخر كلامها، فإنه دليل على الفصاحة ورأس البلاغة، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات، وهو في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعاً من القلوب والأسماع.

إلى أن يقول: فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز، إلّا أنهم خصوا به ـ أعني اسم المجاز ـ باباً يعينه، وذلك أن يسمي الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب، كما قال جرير بن عطية:

---

(١) الشريف الرضي ـ تلخيص البيان في مجازات القران ـ ص٤٢.
(٢) مفهوم الاستعارة ـ ص٦٧.

إذا سقط السماءُ بأرض قومٍ رعيناه وإن كانوا غِضَابا

أراد المطر لقربه من السماء، ويجوز أن تريد بالسماء السحاب لأن كل ما أظلك فهو سماء، وقال: «سقط» يريد سقوط المطر الذي فيه، وقال: رعيناه، والمطر لا يُرعى، ولكن أراد النبت الذي يكون عنه، فهذا كله مجاز.[1]

والاستعارة عنده أفضل المجاز، وأول أبواب البديع، وليس في حلى الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها[2]. ويرى أن من الاستعارة الجيدة قول الشاعر طفيل الغنوي:

فوضعْتُ رَحْلي فوْقَ ناجيةٍ يقتاتُ شحم سنامها الرَّحْلُ

فجعل شحم السنام قوتاً للرحل، وهذه استعارة كما تراها كأنها الحقيقة لتمكنها وقربها. وقد تناولها جماعة منهم كلثوم بن عمر العتابي، قال في قصيدة يعتذر فيها إلى الرشيد:

ومن فوق أكوار المهارى لَبَانَةٌ أحلَّ لها أكْلَ الذُّرَى والغَوَاربِ

أمّا فهم ابن رشيق للبلاغة بشكل عام والاستعارة بشكل خاص، بأنها الجمال في القول، وبما تآلف منه هذا الجمال من عناصر، ويعتمد في دراسته لهذا الموضوع على ما في الشعر من ألوان بيانية مختلفة، نبتت مع الطبع والأصالة لا مع التصنيع ومجرد التزويق والتقليد. وهكذا يتطور مفهوم الاستعارة ويتبلور شيئاً فشيئاً على يد النقاد والبلاغيين.

ثم جاء **أبو محمد بن عبدالله بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي** المتوفى سنة **٤٦٦** هـ في كتابه «سر الفصاحة».

وقد تناول الاستعارة تناول الناقد الواعي البصير المتحرر من ربقة التقليد، فلم

---

(١) العمدة ـ ج١ ـ ٢٦٦.

(٢) العمدة ـ ج١ ـ ١٨٠.

يعرفها، بل شرح تعريف الرماني لها، وبيّن فضل الاستعارة على الحقيقة، وفرق بينها وبين التشبيه، وكشف عن فائدتها، وفرّق بين الاستعارة المقبولة والمرفوضة، ووضع لكل مقياساً، وتناول شواهد السابقين مبدياً رأيه في المقبول منها وغير المقبول.

فمن قوله: ومن وضع الألفاظ في موضعها حسن الاستعارة، وقد حدّها أبو الحسن علي بن عيسى الرماني فقال:
«هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة»[1].

ويشرح فضل الاستعارة على الحقيقة قائلاً: لا بدَّ من أن يكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها، لأن الحقيقة لو قامت مقامها فهي أولى، لأنها الأصل، والاستعارة الفرع.

ويميز بين التشبيه والاستعارة، وإن كانت الاستعارة مبنية على التشبيه، ومن ذلك قول الوأواء الدمشقي:

وأسبلت لؤلؤاً من نرجسٍ فسقت ... ورداً وعضّت على العُنّاب بالبرد

إذ شبه فيه الدمع باللؤلؤ، والعين بالنرجس، والخد بالورد، والأنامل بالعُنّاب، والأسنان بالبرد، وكلها تشبيهات محضة، وليست باستعارة، لأن أداة التشبيه مقدرة، والمقدر كالمذكور.
كما يبين ابن سنان المقبول والمرفوض من الاستعارة بتقسيمها إلى قسمين: قريب مختار، وبعيد مطرح.

كما تناول الاستعارة أبو بكر **عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني** المتوفى سنة **٤٧١** هـ.

---

(١) ابن سنان الخفاجي - سر الفصاحة - ص١٣٤.

عبد القاهر الجرجاني هو صاحب نظرية النظم، وفي إطار تلك النظرية تحدث عن المجاز كأساس للاستعارة، وقسمه إلى قسمين:

١ ـ مجاز لغوي وهو قسمان:

أ ـ ما يبنى على التشبيه، وذلك هو الاستعارة.

ب ـ كل لفظ استعمل مكان لفظ آخر لصلة بينهما وهو الذي عرف أخيراً «بالمجاز المرسل».

٢ ـ المجاز العقلي.

أما الاستعارة فقد تحدث عبد القاهر عنها تحت اسم «البديع»، أو «المحسنات»، ولكنه لم يقصر كتابه على هذه، بل ضمنه غيرها مما يدخل تحت اسم المعاني في عرف المتأخرين. وبهذا يقول: «ومن البيِّن الجلي أن التباين في هذه الفضيلة ليس بمجرد اللفظ، وإنما لأمر خاص بالمعاني، ومواقعها في النفوس»[١].

وإذا كانت أبواب التشبيه والتمثيل، والاستعارة هي الأبواب التي تفسح المجال أكثر من غيرها لضروب التصوير الأدبي، وخلق الصور الفنية، فلا غرابة أن يعدها عبد القاهر الأصول التي تتفرع عنها جل محاسن الكلام، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في تصرفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها.

والاستعارة عند عبد القاهر ادعاء معنى اللفظة لا نقلها، حتى يكون ذلك أدعى إلى تفهم حقيقة الاستعارة، حيث إنها صورة فنية وليدة الخيال.

فعندما نقول: «إني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى»، على سبيل الاستعارة التمثيلية، فإننا نقصد إلى التردد الذي هو أمر معنوي، فليس هناك على الحقيقة تقديم رجل أو تأخير أخرى، وإنما هي المشابهة بين هذا العمل المادي، وذلك

---

(١) أسرار البلاغة ـ ص٣٠.

الأمر المعنوي «التردد»، ولو أردنا هذا العمل على حقيقته دون أن يكون هناك ادعاء أو قصد معنوي، لما كانت الاستعارة أصلاً في الحسبان، ثم إن الأمر في قضية الادعاء جد مرتبط بمسألة تناسي التشبيه، لا نسيانه، لأن نسيان المشابهة وسقوطها من الحساب يخرج الكلام من الاستعارة، وكأن المشبه هو عين المشبه به ولا فرق، وعلى وجه التحقيق والوجوب. ثم إن تناسي الأديب للمشابهة، لا نسيانها، يزيد بوحي من الموهبة الأدبية، فيتكلم عن المشبه وكأنه هو المشبه به، مما يربط التعبير بالمجاز لا بالحقيقة.

ثم جاء الشيخ الإمام ضياء الدين أبو الفتح نصرالله محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف **بابن الأثير** المتوفى سنة **٦٣٧** هـ.

ـ صاحب كتاب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»:

تحدث ابن الأثير عن الحقيقة والمجاز، معرفاً **الحقيقة**: بأنها اللفظ الدال على معناه الأصلي.

والمجاز: هو اللفظ الدال على غير معناه الأصلي.[1]

والحقيقة عنده الأصل، والمجاز الفرع.

كما عرّف الاستعارة بقوله:[2]

«حد الاستعارة نقل المعنى من لفظ إلى لفظ المشاركة بينهما، مع طي ذكر المنقول إليه، لأنه إذا احترز فيه هذا الاحتراز اختص بالاستعارة، وكان حدًّا لها دون التشبيه».

ثم يفسر التعريف بقوله:

«وطريقة أنك تريد تشبيه الشيء بالشيء مظهراً أو مضمراً، وتجرد إلى المشبه فتعيره اسم المشبه به، وتجريه عليه، ومثال ذلك قول الشاعر:

فَرْعَاءَ إن نهضت لحاجتها ... عَجِلَ القضيبُ وأبطأ الدِّعْصُ

---

(١) المثل السائر ـ ج١ ـ ص١٠٥.
(٢) المثل السائر ـ ج٢ ـ ط٢ ـ ص٨٣.

فالشاعر أراد تشبيه القد بالقضيب، والردف بالدِّعص الذي هو كثيب الرمل، فترك ذكر التشبيه مظهراً ومضمراً، وجاء إلى المشبه وهو «القد» أو «الردف» فأعاره المشبه به، وهو القضيب، والدعص وأجراه عليه.

ويتنبه ابن الأثير إلى ضرورة وجود قرينة مانعة في الاستعارة من إيراد المعنى الأصلي.

هذه صورة موجزة تبين لنا بوضوح كيف نظر النقاد والبلاغيون إلى الاستعارة، من خلال دراساتهم الأدبية، وأن الاستعارة تضفي على الأدب بلاغة وجمالاً.

ـ الفصل الرابع ـ

المجاز المرسل وعلاقاته



المجاز العقلي

هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير صاحبه لعلاقة، مع قرينة مانعة من أن يكون الإسناد حقيقياً.

هذه العلاقة المانعة بين الفعل أو ما في معناه، وبين الفاعل غير الحقيقي أنواع:

١ ـ العلاقة السببية، كقولنا:

بنى الأميرُ المدينةَ.

الأمير لا يبني المدينة، وإنما عماله هم الذين يقومون ببنائها، ولما كان الأمير سبباً في جعلهم يبنون، نسب الفعل إليه، فالعلاقة المانعة سببية.

٢ ـ العلاقة الزمانية، كقولنا:

سعدت أيامُهُ.

فالأيام لا تسعد، وإنما الذي يسعد هم الناس الذين يعيشون هذه الأيام التي يرون فيها الخير، فنسب الفعل للأيام، فالعلاقة زمانية، والقرينة عقلية.

ومثل ذلك قول طرفة بن العبد:

ستبـــدي لك الأيام ما كانت جاهـلاً ويأتـــيك بالأخـــبـــار من لم تُزَوِدِ

فأسند الشاعر الفعل «تبدي» إلى الأيام، والأيام فاعل غير حقيقي، والذي سوّغ للشاعر إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي العلاقة الزمانية، لأن الأيام طرف يحدث فيه الإبداء، كما يحدث فيه الإخفاء، والقرينة عقلية.

٣ ـ العلاقة المكانية، كقولنا:

ازدحمت شوارع القاهرة بالناس.

أسند الفعل إلى الشوارع، وليس المقصود الإسناد الحقيقي، لأن العقل يمنع من تصور شوارع تتحرك، وتمشي نحو بعضها وتتزاحم، وإنما الناس هم الذين يتزاحمون فيها. فالعلاقة مكانية والمانعة عقلية.

وكذلك قولنا:

سالت الأودية، وجرت الأنهار.

فالأودية والأنهار أماكن لا تسيل ولا تجري، وإنما الذي يسير فيها هي المياه، ولكنه نسب الفعل إلى الأودية والأنهار، فالعلاقة مكانية، والمانعة عقلية.

٤ ـ العلاقة المصدرية:

قال الشاعر يمدح كريماً:

تكادُ عطاياه يُجَنُّ جُنُونُها إذا لم يُعَوِّذها بُرُقْيَةِ طالب[1]

لقد جعل الشاعر عطايا ممدوحه كائناً حياً، له مشاعر الإنسان وأحاسيسه. فالعطايا تكاد تقوم وتقعد، ويصيبيها مسٌّ من الجنون، إن لم يحصنها صاحبها بدعوة صالحة يدعوها محتاج تسلَّمها من يد هذا الممدوح الكريم.

فالشاهد في هذا البيت «يُجَنُّ جنونُها» فقد أسند الشاعر الفعل «يُجَنُّ» إلى «الجنون»، وهو مصدر يجن بدلاً من إسناده إلى الرجل الذي يكون منه الجنون.

والذي سوَّغ هذا الإسناد العلاقة المصدرية بين الفعل ومصدره، ومثال آخر قول الشاعر:

سيذكرني قومي إذا جَدَّ جدُّهم وفي الليلةِ الظلماء يُفْتَقَدُ البَدْرُ

حيث نسب الفعل «جدَّ» إلى المصدر «جدُّهم»، وليس إلى القوم الذين يكون منهم الجَدْ، وهذا الإسناد مجازي علاقته مصدرية.

---

(١) يعوذها: يحصنها، الرقية: ما يُرْقى به الإنسان من عَيْن حاسد.

٥ ـ العلاقة الفاعلية:

كقوله تعالى: **﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حِجَاباً مستوراً﴾**.[(١)]

الحجاب في أصله ساتر لا مستور، فأسند الوصف المبني للمفعول إلى الفاعل، وهذا الإسناد مجازي علاقته الفاعلية.

٦ ـ العلاقة المفعولية:

ومن ذلك هجاء الشاعر الحطيئة الزبرقان بن بَدْرٍ:

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها   واقعدْ فإنك أنت الطاعم الكاسي

فالمجاز العقلي في «الطاعم الكاسي»، أي يقول له: اقعدْ عن طلب المكارم، فأنت المُطْعَمُ المَكسوُّ. أي جعله كالمرأة التي يأتيها ولي أمرها بالطعام والشراب.

فقد أسند الوصف المبني للفاعل إلى المفعول، وهو إسناد مجازي علاقته المفعولية.

ومثال ذلك، قوله تعالى: **﴿فهو في عيشة راضية﴾** أي مرضية.

وهذه هي علاقات المجاز العقلي.

المجاز اللغوي

وهو القسم الثاني من أقسام المجاز، حيث المجاز الأول هو المجاز العقلي.

يعرِّف البلاغيون المجاز اللغوي، بأنه استعمال كلمة في غير معناها الحقيقي لعلاقة مع قرينة مانعة ملفوظة أو ملحوظة، وهو قسمان:

أ ـ مجاز لغوي تكون العلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي للكلمة على

---

(١) سورة الإسراء ـ الآية ٤٥.

المشابهة، وهذا اللون هو الاستعارة.

ب ـ **مجاز لغوي** تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي للكلمة قائمة على غير المشابهة، وهذا هو المجاز المرسل.[1]

ـ المجاز المرسل:

هو الكلمة المستعملة قصداً في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الحقيقي. والعلاقات كثيرة أهمها:[2]

١ ـ السببية:

وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة المذكورة في العبارة سبباً في المعنى المجازي، كقولهم:

رعتْ الماشيةُ **الغيثَ**، يريدون رعت الماشيةُ النباتَ.

فالغيث مجاز مرسل علاقته السببية، فالغيث سبب في إنبات النبات، والقرينة (رعت الماشية)، فالماشية لا ترعى الغيث حقيقة.

ومنه قول الشاعر:

له أيادٍ عليَّ سابغةٌ   أعدُّ منها ولا أُعددها

«فالأيادي» سبب في الخير، وهي التي تمنح النعم، والقرينة «عليَّ سابغةٌ أعدُّ منها ولا أُعددها».

٢ ـ المُسَبَّبية:

أي التعبير بالمسبب عن السبب، وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة

---

(١) د. بكري شيخ أمين ـ البلاغة العربية ـ ج٢ ـ ص٩٢.

(٢) علي الجارم ـ البلاغة الواضحة ـ ص١٠٨، د. بكري شيخ أمين ـ البلاغة العربية ـ ج٢ ـ ص٩٣، أحمد الهاشمي ـ جواهر البلاغة ٢٩٢، د. عبده عبد العزيز قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ ص٨١.

المذكور في العبارة مسبباً عن المعنى المجازي، كقولهم:

أمطرت السماءُ نباتاً، أي ماءً.

فالنبات مجاز مرسل علاقته المسببية، والقرينة (أمطرت السماءُ) لأن النبات لا ينزل من السماء حقيقة.

وكقوله تعالى: ﴿**وينزل لكم من السماء رزقاً**﴾. أي مطراً يتسبب عنه الرزق.

وكقوله تعالى: ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، إنما يأكلون في بطونهم ناراً**﴾.

فدخولهم النار مسبب عن أكل مال اليتامى. فالنار مجاز مرسل علاقته المسببية، وقرينته لفظية «يأكلون في بطونهم».

٣ ـ اللازمية:

أي التعبير باللازم عن الملزوم، وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة المذكورة في العبارة لازماً للمعنى المجازي لها. كقولنا: بزغَ الضوءُ. فالضوءُ لا يبزغ، وإنما التي تبزغ هي الشمس، والضوء لازم لها. وعليه فالضوء مجاز مرسل علاقته اللازمية، والقرينة بزغ. والبزوغ ليس وصفاً حقيقياً للضوء بل للشمس.

٤ ـ الملزومية:

أي التعبير بالملزوم عن اللازم. وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة في العبارة ملزوماً للمعنى المجازي لها. كقولك: دخلت الشمسُ من النافذة. تقصد ضوء الشمس.

فالشمس مجاز مرسل علاقته الملزومية، لأن المعنى الحقيقي للشمس هو جرمها ملزوم للمعنى المجازي لها وهو الضوء. والقرينة المانعة «دخلتْ»، فجرم الشمس لا يدخل من النافذة، وإنما ضوؤها هو الذي يدخل.

٥ ـ الكلية:

هي التعبير بالكل عن الجزء، أي يذكر لفظ الكل ويراد منه الجزء كقول الله تعالى: ﴿**يجعلون أصابعهم في آذانهم**﴾، أي أناملهم، بل أطراف أناملهم.

فأصابعهم مجاز مرسل علاقته الكلية، والقرينة المانعة استحالة وضع الأصابع كاملة في الآذان.

ومن ذلك قولهم: قطعت السارق، أي يده، وشربتُ ماءَ النهر، أي بعضه.

٦ ـ الجزئية:

أي التعبير بالجزء عن الكل، وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة المذكورة في العبارة جزءاً من المعنى المجازي لها. كقول الشاعر:

كم بعثنا الجيش جرا رأ وأرسلنا العيونا

فالمجاز المرسل في العيون أي الجواسيس، فالعلاقة جزئية، والقرينة لفظية «أرسلنا»، إذ العيون وحدها لا ترسل.

وكقوله تعالى: ﴿**فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ**﴾. فالمجاز المرسل كلمة **رقبة**، أي عبدٍ مؤمن، والقرينة لفظية «فتحرير»، لأن التحرير لا يتصور في الرقبة وحدها، وإنما في الشخص كاملاً.

٧ ـ البدلية:

أي التعبير بالبدل عن المبدل منه، وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة المذكورة في العبارة بدلاً من المعنى المجازي، كإطلاق القضاء على الأداء في قوله تعالى: ﴿**فإذا قضيتم الصلاة**﴾يريد إذا أديتموها، لكن سبحانه وتعالى عبر بالقضاء عن الأداء.

فالمجاز المرسل في كلمة قضيتم «علاقته البدلية»، والقرينة عقلية.

ومن ذلك: قضيت الدين في وقته أي أديته. فالمجاز المرسل في «قضيت» علاقته البدلية، والقرينة لفظية «في وقته المحدد».

٨ ـ المبدلية:

أي التعبير بالمبدل منه عن البدل، كقول الشاعر:

أكلت دماً إن لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

فالمجاز المرسل في كلمة «دم» أي أكلت دية، علاقته المبدلية، لأن الدم مبدل من الدية، والدية بدل من الدم، والقرينة لفظية «أكلت».

٩ ـ اعتبار ما كان:

أي التعبير بما كان عما هو كائن، أو هو تسمية الشيء باسم ما كان عليه نحو قوله تعالى: ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم**﴾ أي الذين كانوا يتامى. أما الآن فهم بالغون. ففي «اليتامى» مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان، والقرينة لفظية، وهي أمر الله تعالى «وآتوا» بتسليمهم أموالهم.

وكقولهم: نلبس في الشتاء **صوفاً** وفي الصيف **قطناً**. في «صوف» و «قطن» مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان، والقرينة لفظية «نلبس»، لأن الصوف الخالص والقطن الخالص الخام لا يلبسان حقيقة.

١٠ ـ اعتبار ما يكون:

أي التعبير بما سيكون عمّا هو كائن، كقوله تعالى: ﴿**إني أراني أعصر خمراً**﴾. فالمجاز المرسل في كلمة «خمراً» أي عنباً، علاقته اعتبار ما سيكون، القرينة لفظية «أعصر». لأن الخمر لا تعصر، بل العنب هو الذي يعصر.

وكقوله تعالى: ﴿**ولا يلدوا إلّا فاجراً كفّاراً**﴾، أي أطفالاً يكونون فاجرين، فالمجاز المرسل في كلمة «فاجراً» علاقته اعتبار ما يكون، والقرينة المانعة لفظية «ولا يلدوا».

١١ ـ الآلية:

أي التعبير بالآلة عن أثرها وما مورس بها، كقوله تعالى: ﴿**واجعل لي لسان صدق في الآخرين**﴾، أي ذكراً جميلاً وثناءً حسناً. ففي «لسان صدق» مجاز مرسل علاقته الآلية، لأن اللسان بمعناه الحقيقي آلة ووسيلة للذكر الحسن الذي هو المعنى المجازي للسان.

ويرى بعض البلاغيين أن الآلية والسببية بنفس المعنى، ويمكن الاستغناء بإحداهما عن الأخرى.

١٢ ـ المجاورة:

هي كون الشيء بدلاً عن شيء آخر، أو هو التعبير بالمجاور عما جاوره، وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة المذكورة في العبارة مجاوراً للمعنى المجازي لها، كقول عنتر العبسي:

فشككتُ بالرمح الأصمِّ ثيابه   ليس الكريم على القنا بمحرم

أي فشككت بالرمح الأصم جسمه. فالمجاز المرسل في «ثيابه» علاقته المجاورة والقرينة لفظية «فشككت»، لأن الشك هنا هو الطعن، والطعن لا يكون في الثياب وإنما في الجسم.

ويرى بعض البلاغيين أنه يمكن الاستغناء عن هذه العلاقة «بالمحلية»، أي ذكر المحل وهي «الثياب» وأراد الحال وهو الجسم.

١٣ ـ المحلية:

أي التعبير بالمحل ويراد به الحال به كقوله تعالى: ﴿**واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها**...﴾. أي واسأل أهل القرية، وأصحاب العير، والقرينة لفظية «اسأل»، إذ أن كل من القرية والعير لا تُسأل.

وكقوله تعالى: ﴿**فليدْعُ ناديه**﴾، أي الموجودين في النادي.

فكلمة «ناديه» مجاز مرسل علاقته المحلية، والقرينة لفظية «فليدعُ».

١٤ ـ الحالية:

التعبير بالحالين في المكان، ويراد المكان نفسه، وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة المذكورة في العبارة حالاً في المعنى المجازي لها. كقولك: جئت المدينة ونزلت فيها بصديقي ناصر. أي بدار صديقي ناصر. فالمجاز المرسل «بصديقي ناصر» علاقته الحالية، والقرينة المانعة لفظية «نزلت»، فالإنسان لا ينزل بصديق وإنما بداره.

وهكذا فإن المجاز المرسل من الوسائل التي تساعد على بلاغة التعبير وعلى جماله وحسن وقعه في نفوس المتذوقين، ذلك أن المعنى يُنْقَلُ من مدلول اللفظة الأصلي أو الوصفي إلى مدلول جديد هو أكثر اتساعاً وأبعد أفقاً وأدعى إلى التأمل.

ـ الفصل الخامس ـ

الكناية وأنواعها

الكناية

الكناية لغةً: مصدر لفعل (كَنَيْتُ) أو (كَنَوْتُ)، تقول: كنيت بكذا عن كذا، أي تكلمت بما يستدل به عليه، أو تكلمت بشيءٍ وأردت غيره.

الكناية بلاغةً: لفظ أُطلق وأُريد به لازم معناه، مع جواز إرادة المعنى الأصلي.

أو هو كلام أُريد به معنى غير معناه الحقيقي الذي وضع له، مع جواز إرادة المعنى الأصلي، إذ لا قرينة تمنع هذه الإرادة.[1].

أما الفرق بين الكناية والمجاز فهو:[2]

١ ـ إنهما يشتركان في ضرورة وجود قرينة تدل على المعنى المقصودِ من كل منهما، أي على المعنى الكنائي في الكناية، وعلى المعنى المجازي في المجاز.

٢ ـ الفرق بين القرينتين جوهري كالفرق بين الكناية والمجاز، فالقرينة في الكناية لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي، أما القرينة في المجاز فتمنع من إرادة المعنى الأصلي.

ـ أقسام الكناية:

١ ـ كناية عن صفة، أي عن معنى.
٢ ـ كناية عن موصوف أي عن ذات.

---

(١) د. بكري شيخ أمين ـ البلاغة العربية ـ ج٢ ـ ص١٥٣.

(٢) د. عبده عبد العزيز قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ ص١٠٣.

٣ ـ كناية عن نسبة، أي نسبة الصفة إلى الموصوف، أو نسبة المعنى إلى الذات.

١ ـ الكناية عن صفة:

وهي التي تُطْلَبُ بها نفس الصفة، والمراد بالصفة ليس النعت المعروف في علم النحو، بل الصفة المعنوية كالجود والشجاعة والطول والجمال، وغير ذلك.

وبعبارة أخرى، الكناية عن الصفة، هي التي نصرح فيها بالموصوف، وبالنسبة إليه، ولكن لا نصرح بالصفة المكنى عنها، بل بصفة أو بصفات أخرى تستلزمها.

ومن أمثلة ذلك قول المتنبي في إيقاع سيف الدولة بأعدائه:

فمسَّاهُمْ وَبُسْطُهُمُ حريرٌ   وصبَّحَهُمْ وَبُسْطُهُمُ تُرَابُ

أراد المتنبي أن يقول: إن سيف الدولة هاجم أعداءه الذين قضوا ليلتهم وهم في عز، ولما أصبح عليهم الصباح ماتوا جميعاً، فأصبحت بسطهم تراباً، أو أنهم كانوا في المساء سادة أعزاء، ثم صاروا في الصباح بعد الإيقاع بهم أذلاء، أو قتلى.

فالتعبير في «بسطهم حرير» و «بسطهم تراب»، كنايتان عن صفتي الغنى والفقر. ويجوز في الوقت نفسه إرادة المعنى الأصلي لبسط الحرير وبسط التراب.

ومن أمثلة ذلك، قول الخنساء في أخيها صخر:

طويلُ النِّجَادِ، رفيعُ العِمادِ   كثيرُ الرَّماد إذا ما شَتَا

تصف الخنساء أخاها بثلاث صفات:

طويل النجاد، ورفيع العماد، وكثير الرماد. فطول النجاد، وهي حمائل السيف يستلزم طول القامة، فأخوها طويل، وتلك هي الصفة الأولى.

أما الصفة الثانية فرفعة العماد، وهذه تستلزم كثرة الطبخ، وكثرة الطبخ تستلزم

كثرة الآكلين، وكثرة الآكلين تستلزم كثرة الضيوف، وكثرة الضيوف تستلزم الكرم.
فصخر إذن كريم، زعيم، طويل القامة.

ومن أمثلة ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها، وإما عبد شمس وهاشم

فالموصوف في هذا البيت صاحبة القرط، وفيه نسبة بعد مهوى القرط إليها، وليس بُعْدُ مهوى القرط مقصوداً لذاته، بل لما يلزمه من طول عنقها، وهو مظهر من مظاهر الجمال في النساء، كنى عنه ببعد مهوى القرط. فالكناية كناية عن صفة.

ومن الكنايات عن صفات:

الطلاب يتثاءبون، كناية عن الكسل.
السامعون يديمون النظر إلى ساعاتهم، كناية عن الملل.
الناس كأن على رؤوسهم الطير، كناية عن الهدوء وعمق الإصغاء.
حسين لا يدخل من هذا الباب، كناية عن ضخامته.
صارت نهلة عروساً، كناية عن أنها كبرت.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم**﴾ كناية عن عنادهم وكفرهم.

وقوله تعالى: ﴿**وقالت اليهود يد الله مغلولة، غُلَّت أيديهم، ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان**﴾.

ففي تعبير «يد الله مغلولة» كناية عن البخل، وفي تعبير «يداه مبسوطتان» كناية عن الكرم.

والكناية عن صفة ضربان:

أ ـ الضرب الأول: الكناية القريبة، وهي التي ينتقل فيها الذهن من المعنى الأصلي إلى المعنى الكنائي بلا واسطة بين المعنيين **كخرساء الأساور**، كناية عن السمنة، فليس بين صمت الأساور والسمنة واسطة ما.

ب ـ **الضرب الثاني**: الكناية البعيدة، وهي ما كثرت فيها الوسائط بين المعنيين الأصلي والكنائي: ككثير الرماد، كناية عن الكرم. فبين كثرة الرماد وسائط جمة، إذ ينتقل الذهن من كثرة الرماد إلى كثرة الحرق، ومن كثرة الحرق إلى كثرة الطبخ، ومن كثرة الطبخ إلى كثرة الأكلة، ومن كثرة الأكلة إلى كثرة الضيوف ـ إلى الكرم.

٢ ـ الكناية عن موصوف:

وفيها يُصَرَّح بالصفة وبالنسبة ولا يصرح بالموصوف صاحب النسبة، بل يكتفى عنه بما يدل عليه ويستلزمه، كقولنا: أحمد صفا لي مَجْمَعُ لُبِّه، أي قلبه.

فقد صرَّح بالصفة وهي «مجمع لبه»، وصرَّح بالنسبة وهي «إسناد الصفاء إلى مجمع اللب»، ولم يصرح بالموصوف الذي هو القلب، بل ذكر مكانه وصفاً خاصاً به، وهو كونه مجمع اللب.

وكقول امرىء القيس يكني عن صاحبته:

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِبَاؤها   تمتَّعت من لهوٍ بها غير معجل

و (بيضة خدر) كناية عن موصوف، وهي المرأة صاحبة الخدر.

ومن ذلك قول الشنفرى يكني عن الحرب بأم قسطل في قوله:

فإن تبتئس بالشنفرى أم قسطل   لما اغتبطت بالشنفرى قبل أطول

فالقسطل: الغبار، وأم قسطل هي الحرب التي تثير الغبار لكثرة حركة الفرسان على خيلهم وهي تضرب بأرجلها الأرض.

ومن ذلك وصف أبي نواس للخمر:

فلما شربناها ودبَّ دبيبها   إلى موطن الأسرار قلت لها: قفي
مخافة أن يسطو عليَّ شعاعُها   فيطْلُعُ ندماي على سري الخفي

فالكناية في البيت الأول في قوله «موطن الأسرار»، ويريد به القلب. لقد صرح أبو نواس بالصفة وهي «موطن الأسرار»، وصرّح بالنسبة وهي: إسناد الدبيب إلى موطن الأسرار، ولم يصرح بالموصوف وهو «القلب»، بل ذكر مكانه وصفاً خاصاً به، وهو كونه موطن الأسرار.

ومن ذلك قول حميد بن ثور، فقد كنى بالسرحة ويريد المرأة، وذلك عندما حظر بعض الخلفاء على الشعراء ذكر النساء:[1]

تَجَرَّمَ أهلوها لأن كنت مشعراً ... جنوناً بها يا طول هذا التجرم
وما لي من ذنب إليهم علمته ... سوى أنني قد قلت يا **سرحةُ** اسلمي
بلى اسلمي ثم اسلمي ثم اسلمي ... ثلاث تحيات وإن لم تكلم

فكنّى عمن تغزّل فيها «بالسرحة»، وقد كانوا يقولون لزوجة الرجل سرحته.

وكما كنوا عن المرأة بالسرحة، كنوا عنها بالنخلة، كما قال شاعرهم:

ألا يا **نخلة** من ذات عرق ... عليك ورحمةُ الله سلام

والكناية عن الموصوف نوعان:[2]

١ ـ **النوع الأول**: ما يكنى فيه عن الموصوف بمعنى واحد كما في الأمثلة السابقة، وكما في قول الشاعر:

الضاربين بكل أبيض مخذم ... والطاعنين مجامع الأضغان

فقد كنى بمعنى واحد هو «مجامع الأضغان» عن موصوف هو القلوب. والمقصود بوحدة المعنى هنا إنما هي وحدة النوع أو الجنس، وإن كان مثنى أو

---

(١) د. عبده عبد العزيز قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ ص١٠٩.

(٢) المرجع السابق، ص١١٠.

جمعاً. فمجامع الأضغان، وإن كان جمعاً، إلاّ أنه معنى واحد من حيث أنه جنس واحد هو القلوب.

٢ ـ **النوع الثاني**: وهو ما يكنى فيه عن الموصوف بمجموعة معانٍ تتضافر مع بعضها حتى تشكل الموصوف المكنى عنه بها وتحضره في ذهن القارىء أو السامع، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿**أو من يُنْشأُ في الحلية وهو في الخصام غير مبين**﴾.

لم يعبر الله سبحانه وتعالى عن البنات بمعنى واحد، بل بمعنيين اثنين هما: التنشئة في الحلية، والعجز عن الإبانة في اللدد والخصومة.

فقد كنى عن الموصوف وهو البنات بمعنيين، ولكنهما مختلفان ومتكاملان ويؤديان إلى المكنى عنه بهما في الآية الكريمة، وهو الإناث في مقابلة الذكور.

٣ ـ **الكناية عن نسبة**: أي نسبة الصفة إلى الموصوف.

وفيها يُصَرَّحُ بالصفة والموصوف، ولا يصرح بالنسبة الموجودة مع أنها هي المرادة، كقولنا:

الكرم في ثوب محمد

حيث ذكرت الصفة وهي الكرم، والموصوف وهو محمد، ولم يذكر أنه كريم، بل نسب الكرم إلى ما في ثوبه، وهذه تستلزم أن محمداً هو الكريم، لأن الذي في الثوب هو محمد لا غيره.

ومنه قول الشاعر زياد الأعجم:

إن السماحة والمروءة والندى ... في قبة ضربت على ابن الحشرج

أراد الشاعر أن يثبت السماحة والمروءة والكرم للمدوح ابن الحشرج، فلم يعبِّر بصريح اللفظ، وإنما لجأ إلى الكناية، فنسب الصفات إلى قبة الممدوح، وهذه النسبة تستلزم أن يكون سيد القبة وصاحبها هو صاحب السماحة والمروءة والندى.

ومنه قول أبي نواس في مدح الخطيب:

فمـــا جازه جود ولا حلَّ دونـــه ولــكــن يصـير الـجــود حيث يصـير

فقـد ذكر الصفة وهي الجود، والموصوف وهو الممدوح، ونسب الجود إلى مكانه وحيث يحل، لأن الذي في المكان هو الخطيب لا غير.

من كل ما سبق نجـد أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح، لأن الانتقال فيهما من الملزوم إلى اللازم، فهو كدعوى الشيء ببينة، وأن الاستعارة أبلغ من التشبيه لأنها نوع من المجاز.



ـ الفصل السادس ـ

الخبر والإنشاء

الغرض من إلقاء الخبر.

أضرب الخبر.

الإنشاء الطلبي وغير الطلبي.



الخبر والإنشاء

الخبر والإنشاء من موضوعات علم المعاني وموضوعهما الجملة التي تتألف من مسند إليه ومسند. فالمسند إليه ما يُتَحَدَّث عنه، ويشمل المبتدأ الذي له خبر، والفاعل، ونائب الفاعل، واسم كان، واسم إن، واسم ما الحجازية، واسم لا النافية للجنس، واسم لا النافية للوحدة.

وباختصار، المسند إليه ما كان أصله مبتدأ ثم دخلت عليه أداة من أدوات النسخ المعروفة في علم النحو.

أما المبتدأ الذي له فاعل سدَّ مسد الخبر كما في قولنا: ما قائم أخواك، فليس بمسند إليه، وإنما هو مسند، والمسند إليه هو الفاعل، وإنما أعرب قائم مبتدأ رعاية للصياغة النحوية، وهو في الواقع مسند، لأنه وصف للفاعل، فهو بمثابة الفعل في الجملة الفعلية، وإنما أعرب هنا مبتدأ لأن النحو يأبى إعرابه غير ذلك.

والمسند هو الفعل والخبر، واسم الفاعل والمصدر النائب عن فعله. وما زاد عن ركني الإسناد من القيود والإضافات والصفات فإنها قيود، وكذلك الجمل الحالية، وجمل النعت ليست داخلة في حدود الإسناد لأنها تحل محل المفرد، فإذا قلت: أقبلت الفتاةُ تبتسم، فإن جملة تبتسم بمنزلة مبتسمة، وركنا الإسناد هما: أقبلت، والفتاة.[1]

- أقسام الجملة:

تقسم الجملة في اللغة العربية إلى قسمين:

---

(١) د. سيد أحمد خليل - المدخل إلى دراسة البلاغة العربية - ص٢٠٠.

أ ـ الجملة الخبرية : وبها يعبر عن واقع حدث وانتهى ، وهو جانب وصفي من وظيفة اللغة . أما البلاغيون فقد عرفوا الخبر بأنه ما يمكن أن يقال لصاحبه أنك صادق أو كاذب إذا كان يتفق والواقع .

ب ـ الجملة الإنشائية : هي الكلام الذي يستشرف المتكلم إلى حدوثه ، وهو جانب الدفع الذي يمكن أن تستفيد به الحياة في تطورها وعمرانها ، ويصح أن يؤدي إلى فساد الأمر واضطرابه ، ففيه إحداثات جديدة لم تكن .

ويعرف البلاغيون الإنشاء بأنه الذي لا يصح أن يقال لقائله : إنك صادق أو كاذب ، إذ ليس له واقع يمكن أن يقارن به فيحكم بصدق قائله أو كذبه .

ومما سبق نستنتج أن لكل جملة في اللغة العربية ركنان أساسيان ، مسند إليه ، ومسند ، وما زاد عن ذلك فهو قيدٌ . ومن القيود أدوات الشرط والنفي ، والمفاعيل ، والحال ، والتمييز ، والتوابع ، والنواسخ .

الخبر

١ ـ الغرض من إلقاء الخبر

الأصل في الخبر أن يلقى لأحد غرضين:

أ ـ إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة، ويسمى ذلك الحكم فائدة الخبر. مثال ذلك:

وُلِدَ الرسولُ محمدٌ ﷺ عام الفيل، وأوحي إليه في سن الأربعين، وأقام بمكة ثلاثَ عشرة سنةً، وبالمدينة عشراً.

فهذه الجملة الخبرية أفادت السامع فائدة جديدة لم يكن يعرفها من قبل، وهي تاريخ ميلاد الرسول، وتاريخ الإيحاء إليه، والزمن الذي أقامه بكل من مكة والمدينة المنورة، وهذا ما يسمى **بفائدة الخبر**.

ب ـ إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم، ويسمى ذلك لازم الفائدة. مثال ذلك:

١ ـ لقد نهضتَ اليومَ من نومك مبكراً.

٢ ـ أنت تعمل في حديقتك كل يوم.

فإذا تأملت المثالين السابقين وجدت أن المتكلم لا يقصد منهما أن يفيد السامع شيئاً مما تضمه الكلام من الأحكام، لأن ذلك معلوم للسامع قبل أن يعلمه المتكلم، وإنما يريد أن يبين له أنه عالم بما تضمنه الكلام. فالسامع في هذه الحال لم يستفد علماً بالخبر نفسه، وإنما استفاد أن المتكلم عالم به، ويسمى ذلك **لازم الفائدة**.[1]

(١) علي الجارم ومصطفى أمين ـ البلاغة الواضحة ـ ١٤٦.

٢ ـ أضرب الخبر

مواقف الناس عند تلقيهم الخبر متباينة، جماعة يصدقونه، وجماعة يكذبونه، وثالثة تشك في تصديقه وتتردد.

هذه المواقف يلحظها البليغ الذكي، ويبني كلامه وفق مقتضياتها. إنه يعرف كيف يخاطب المنكرين المكذبين بأسلوب يختلف عن مخاطبة المترددين أو المصدقين، وهذه المعرفة تقوده إلى أن ينوِّع أساليب إخباره توكيداً أو عدم توكيد، وهو قسمان:

١ ـ **القسم الأول**: الخبر الذي يجري على مقتضى ظاهر حال المخاطب وهو ثلاثة أضرب هي:

أ ـ الخبر الابتدائي:

هو الخبر الذي يلقى على السامع عندما يكون خالي الذهن، أي يصدق كل ما يسمع، وفي هذه الحال يلقى إليه الخبر خالياً من أدوات التوكيد.

ومن أمثلته قول أبي تمام:

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدى الفتى في دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا هلكن إذن من جهلهن البهائم

وقول أبي بكر الأرجاني:

ذهب التكرُّم والوفاء عن الورى وتصرَّما إلّا من الأشعار
وفشت خيانات الثقات وغيرهم حتى اتهمنا رؤية الأبصار

وقول المتنبي :

أنـا الـذي نظر الأعـمى إلى أدبي وأسـمعـت كلمـاتـي من به صمـم
أنـام ملء جفـونـي عن شواردهـا ويسهـر الخلق جرّاهـا ويختصمـوا

وقوله :

على قدر أهـل العـزم تأتي العـزائم وتـأتـي على قدر الكـرام المكـارم
وتـكبـر في عين الصغير صغـارهـا وتصغـر في عين العـظيم العـظائم

فهذه الأخبار جميعها خالية من أي أداة من أدوات التوكيد، ذلك لأن السامع خالي الذهن عن أي معلومة طرحها الخبر، وكل خبر لا يشتمل على أي أداة من أدوات التوكيد يسمى خبراً ابتدائياً.

ب ـ الخبر الطلبي :

هو أن يكون السامع متردداً في الحكم، طالباً أن يصل إلى اليقين في معرفته، وفي هذه الحال يحسن توكيده له بمؤكد واحد ليتمكن من نفسه، ويسمى هذا الضرب من الأخبار الخبر الطلبي.

ومن أمثلته، قول النابغة الذبياني :

ولـست بمـستبـقٍ أخـاً لا تلمـه على شعثٍ أيُّ الـرجـال المهـذب

فقد أكد خبره بمؤكد واحد هو الباء في خبر ليس، «بمستبق» وهي زائدة للتوكيد.

وقول الشريف الرضي :

قد يبلغ الـرجـل الجبـان بمـالـه ما ليس يبـلغـه الـشجـاع المعـدم

فقد أكد الشريف الرضي قوله بمؤكد واحد هو «قد».

وقول السرّي الرفاء :

إن البـنـاء إذا ما انـهـد جانـبـه　　لم يأمـن النـاس أن ينـهـد باقيه

وقول جرير:

إنَّ العيون التي في طرفها حَوَرٌ　　قتلننا ثم لم يُحْيينَ قتلانا

ومن هذا، قوله تعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾[1].

وقول أبي العلاء في الرثاء:

إنَّ الذي الوحشة في داره　　تؤنسه الرحمة في لحده

ففي الأخبار السابقة كان المخاطب أو السامع متصوراً طرفي الخبر، ولكنه شاك في ثبوت أحدهما للآخر، فرأى المخبر تقوية خبره بمؤكد واحد ليزيل اللبس عند السامع.

جـ ـ الخبر الإنكاري:

وهو أن يكون المخاطب منكراً له، وفي هذه الحال يجب أن يؤكد الخبر بأكثر من مؤكد حسب إنكاره قوةً وضعفاً، ويسمى هذا الضرب إنكارياً.

ومن أمثلته قول الله عز وجل: ﴿**قالوا** ربنا **يعلم إنّا إليكم لمرسلون**﴾.

ومن الشعر قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وإنّي لحلوٌ تعتريني مرارةٌ　　وإنّي لتـرَّاك لما لم أعود

وقول المعري:

ألا إن أخلاق الفتى كزمانه　　فمنهن بيض في العيون وسود

وقول الأرّجاني:

(١) سورة يونس ـ الآية ٦٢.

إنـــا لفـــي زمـــنٍ ملآنَ من فتـــنٍ فلا يُعَـــابُ به ملآنُ من فَرَقِ[1]

وقول الآخر:

والله إنـــي لأخـــو همـــةٍ تسمـــو إلى المجـــد ولا تفتـــر

أما الأدوات التي يمكن استخدامها للتوكيد فهي : إنَّ، وأَنَّ، والقسم، ونون التوكيد الخفيفة، ونون التوكيد الثقيلة، ولام الابتداء، والحروف الزائدة، وقد، وأما الشرطية، وأحرف التنبيه.

٢ ـ القسم الثاني: الخبر الجاري على خلاف مقتضى ظاهر حال المخاطب: ويراد بالظاهر أصل الاستعمال اللغوي في دلالته الأولى. فالأصل أن يلقى الخبر للفائدة، أو لإشعار المخاطب أن المتكلم على علم بالخبر مع علم المخاطب سلفاً به، وهو ما يسمى بلازم الفائدة، فإذا استخدم الخبر لغير ذلك خرج عن مقتضى الظاهر.[2]

وقد يخرج الخبر عن معناه الأصلي إلى معانٍ أخرى، وهذه المعاني تفهم من سياق الكلام وأهمها:[3]

١ ـ تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة الجاهل به لعدم عمله بعلمه، كقولنا للمسلم الذي لا يصوم رمضان وهو قادر على صومه «صوم رمضان ركن من أركان الإسلام». الأصل ألّا نقول له ذلك، لأنه يعلمه، لكنه لما لم يعمل بما يعلم نُزِّل منزلة الجاهل بما قلناه له.

٢ ـ تنزيل خالي الذهن منزلة المتردد: وذلك إذا قدم له ما يلوِّح بحكم الخبر، فيستشرف له استشراف السائل عنه، ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى لنوح عليه

---

(١) الفرق: بفتح الفاء والراء، الخوف.

(٢) د. محمود أبو عجمية ورفاقه ـ علوم البلاغة ـ ص٩٨.

(٣) د. عبده عبد العزيز قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ ص١٣٣.

السلام: ﴿**ولا تخاطبني في الذين ظلموا، إنهم مغرقون**﴾.

وقول الله تعالى للناس كافة: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيم**﴾

وقول الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿**وصلِّ عليهم إن صلاتك سكنٌ لهم**﴾.

ومما جاء بهذا الخصوص شعراً قول بشار بن برد:

بكِّرا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير

وقول المتنبي:

ترفق أيها المولى عليهم فإنَّ الرفق بالجاني عتاب

٣ ـ **تنزيل خالي الذهن منزلة المنكر**: ويتم ذلك إذا كان مضمون الخبر شيئاً معنوياً يحتاج في إدراكه والاقتناع به إلى تأمل وتدبر مثل: إنَّ الاستغراق في أحلام اليقظة لمضيعة للوقت. وإنَّ الفراغ لمفسدة.

أو كان بشارة عظيمة تكاد من عظمتها لا تصدق، كقول الله تعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾.

٤ ـ **تنزيل المتردد منزلة خالي الذهن**: وذلك إذا لم يكن هناك داع لتردده، فلا تؤكد له الخبر بأي مؤكد. نقول للطالب المتفوق دائماً، لكنه برغم تفوقه الدائم متخوف من نتيجة الامتحان، نقول له: «أنت ناجحٌ».

٥ ـ **تنزيل المتردد منزلة المنكر**: وذلك إذا كانت درجة تردده عالية، فنؤكد له الخبر بأكثر من مؤكد. نقول للطالب الذي لم يرضَ عن إجابته وتصور أنها لا تنجحه «إنك قد نجحت».

٦ ـ **تنزيل المنكر منزلة خالي الذهن**: وذلك إذا كان لديه ما إن تأمله ارتدع عن إنكاره، فإننا والحالة هذه لا نؤكد الخبر بأي مؤكد، كقولنا لمنكر الإسلام «الإسلام حق»، ولمنكر فضل العلم «العلم نافع»، وقوله تعالى لمنكري وحدانيته:

﴿وإلـهكم إلـه واحد﴾.

٧ ـ **تنزيل المنكر منزلة المتردد:** إذا كانت درجة إنكاره غير عالية، وفائدة تنزيل المنكر منزلة المتردد تقليل التوكيد له كقولنا للمنكرة حب زوجها لها: «إن زوجك يحبك». وقولنا للمنكر نفع الاجتهاد «إن الاجتهاد مفيد». ومن ذلك قول الله تعالى: **﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾**.

ولا تقتصر وظيفة الخبر على القسمين السابقين، بل تتجاوزهما إلى أغراض أخرى، تسمى الأغراض البلاغية، وأغراض الخبر البلاغية كثيرة منها:[١]

١ ـ الاسترحام والاستعطاف:

فمن ذلك قول الشاعر:

فما لي حيلة إلّا رجائي ... لعفوك إن عفوت وحسن ظني

يظن الناس بي خيراً وإنّي ... لشرُّ الناس إن لم تعف عني

وقول المتنبي مستعطفاً من حبسه:

دعوتك عند انقطاع الرجا ... ء والموت مني كحبل الوريد

دعوتك لما براني البلاء ... وأوهن رجلي ثقل الحديد

وقول إبراهيم بن المهدي يستعطف الخليفة المأمون ويسترحمه:

أتيتُ جرماً شنيعاً ... وأنت للعفو أهلُ

فإن عفوتَ فمنٌّ ... وإن قتلت فعدلُ

٢ ـ إظهار الضعف:

كقول الله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: **﴿إنّي وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾**.

(١) د. عبده عبد العزيز قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ ص١٤١.

وكقول الشاعر:

إنّ الثمانين وبلغتها ... قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

٣ ـ التحسر على شيءٍ محبوب:

كقول الله تعالى عن أم مريم: ﴿**إنّي وضعتها أنثى**﴾. وكقول الأب الذي ثكل وحيده: «مات وحيدي، وتركني أصحب الدنيا بلا أمل».

ومن ذلك قول المتنبي:

أقمت بأرض مصر فلا ورائي ... تخبُّ بي الركاب ولا أمامي

٤ ـ تحريك الهمة والحث على العمل:

كقوله تعالى: ﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**فمن يعمل مثقالَ ذرة خيراً يره**﴾.

وقوله عز وجل: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء، كل امرىء بما كسب رهين**﴾.

ومن ذلك قول الشاعر:

وليس أخو الحاجات من بات نائماً ... ولكن أخوها من يبيت على وجل

وكقول شوقي:

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وما استعصى على قومٍ منالٌ ... إذا الإقدام كان لهم ركابا

٥ ـ التهديد:

كقول بشار:

إذا ما غضبنا غضبةً مضريةً ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

وكقول الآخر:

سأطلب حق آبائي وحقي ... ولو من بين أنياب الأفاعي

٦ ـ التحذير:

كقول النبي ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق».

وكقول بعض الحكماء: «من نخل الناس غربلوه».

وكقول الشاعر علي بن المقرب:

إن ترى شخصي لأمر ساكناً ... فلعمري إن قلبي في طراد
رُبَّ ذي همٍّ تراه مطرقاً ... وهو في إطراقه حبسة واد

٧ ـ النصح:

كقول الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

٨ ـ التوبيخ:

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني ... وأشمتَّ بي من كان فيك يلوم

وكقولك للذي لا يهتم بنظافة جسمه وملابسه: «النظافة من الإيمان».

٩ ـ الفخر:

كقول عمرو بن كلثوم:

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ... ويشرب غيرنا كدراً وطينا
إذا بلغ الفطام لنا رضيعاً ... تخرُّ له الجبابر ساجدينا

وقول الفرزدق:

نرى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

وقول جرير:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

١٠ ـ المدح:

كقول النابغة الذبياني:

فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقول المتنبي:

أرى كل ذي ملك إليك مصيره كأنك بحرٌ والملوك جداول
إذا أمطرت منهم ومنك سحائب فوابلهم طلٌّ وطلُّك وابلُ

١١ ـ الهجاء:

كقول الشاعر:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوّت إنسان فكدت أطير

وقول علي بن المقرب في هجاء بطانة الحكم:

وما منهم إلّا مهين رمت به أبوة سوء من إماءٍ جلائب
أخو مومس أو صنوها أو حليلها فقد حُفّ بالسوءات من كل جانب
وما زال نتن الخيم والأصل مولعاً ببغضاء أرباب العلا والمناقب

١٢ ـ الرثاء:

كقول الشاعر علي بن المقرب:

رزئت ملوكاً لو بكيت لفقدهم دماً ما كفاني عُمْرُ نوحٍ ولقمان
بهم كنت أرمي من رماني وأتقي بهم نائبات الدهر من حيث تلقاني

١٣ - إظهار الفرح:

كقول الشاعر:

هناءٌ محا ذاك العزاء المقدَّما فما عبس المخزون حتى تبسَّما

ـ الإنشاء

الجملة الإنشائية هي التي تصاغ بطريقة تبعد عنها كل احتمال للتصديق أو التكذيب، كقول ميخائيل نعيمة: يا أبناء بلادي أحبوا بلادكم، لا بشفاهكم، بل بقلوبكم. أحبوا بحرها، أحبوا جبالها، ليكن ما تقدمونه للناس وحياً وجمالاً، وليكن علمكم علم نور، علم هداية، علم محبة.

ولقد ميز البلاغيون نوعين أساسيين من الجمل الإنشائية: الطلبي، وغير الطلبي.

فالإنشاء الطلبي هو الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب. أما الإنشاء غير الطلبي، فلا يستدعي مطلوباً.(١)

أ ـ الإنشاء الطلبي:

في الإنشاء الطلبي خمسة أنواعٍ هي: الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء.

ـ **الأمر**: وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء، ويأتي على صيغ:

أ ـ فعل الأمر: كقول أبي نواس:

دعْ عنك لومي فإن اللوم إغراءُ **وداوني** بالتي كانت هي الداءُ

ب ـ المضارع المجزوم بلام الأمر: كقول ميخائيل نعيمة في إحدى خطبه:

---

(١) د. أحمد أبو حاقة ـ البلاغة والتحليل الأدبي ـ ٦٧.

«ألا **فليجردوا** أولاً قلوبهم من مدافع الطمع وحراب البغض، وقنابل الحسد! ألا **فلينقوا** أفكارهم من الوهم.

جـ ـ اسم فعل الأمر: كقول الشاعر أبي فراس الحمداني، وهو يناجي حمامة كانت تنوح على غصن شجرة، قريباً من مكان أسره:

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا **تعالَيْ** أقاسمْك الهموم **تعالَيْ**
تعالَيْ تَرَيْ روحاً لدي ضعيفةً تردَّدُ في جسم يُعذَّبُ بالِ

فلفظة «تعالَيْ» اسم فعل أمر بمعنى أقبلي أو تقدمي.

د ـ المصدر النائب عن فعل الأمر: كقول جرير في هجاء بني نمير الذين دمغهم بقصيدته الدامغة، وأذلهم بين الناس:

فصبراً يا تيوسَ بني نمير فإن الحرب موقدةٌ شهابا

والتقدير: اصبروا صبراً.

وقد يخرج الأمر إلى معانٍ أخرى تستفاد من سياق الكلام، وقرائن الأحوال منها:

١ ـ الدعاء، كقولك: «ربنا **اغفر** لنا ذنوبنا، **وكَفِّرْ** عنَّا سيئاتنا **وارحمنا**، **واهدنا** سواء السبيل.

٢ ـ التمني، كقول امرىء القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا **انجلِ** بصبحٍ وما الإصباح عنك بأمثل!

٣ ـ الالتماس: كقولك لصديقك:
تفضلْ كلْ معي.

٤ ـ التعجيز: كقول الفرزق يفاخر جريراً ويتعالى عليه:

أولئك آبائي **فجئني بمثلهم** إذا جمعتنا يا جريرُ المجامع

٥ ـ الإهانة: كقول جرير في هجاء الراعي النميري وقومه:

فغضّ الطرفَ إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

٦ ـ الإرشاد والوعظ: كاستخدام الخطباء لصيغ الأمر في مواعظهم، واستخدام المعلمين لها في هداية تلاميذهم وتوجيههم نحو الأفضل.

٧ ـ الإباحة: كقوله تعالى: ﴿**كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر**﴾.[1]

٨ ـ التسوية: ومنه قول الله تعالى: ﴿**فاصبروا أو لا تصبروا سواءٌ عليكم**﴾.
ومنه قول المتنبي:

عش عزيزاً أو **مُتْ** وأنتَ كريمٌ بين طعن القنا وخَفْق البُنود

٩ ـ الوعيد، كقوله تعالى: ﴿**فذرْهم يخوضوا ويلعبوا**﴾[2]
وقوله تعالى: ﴿**ذرْهم يأكلوا ويتمتعوا**﴾[3].

١٠ ـ الأمر للاعتبار: كقوله تعالى: ﴿**انظروا إلى ثمره إذا أثمر**﴾[4]

ـ النهي:

وهو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، وهذا المعنى هو المعنى الأصلي للنهي.

تكون صيغة النهي بالفعل المضارع المقترن بلا الناهية، كقوله تعالى: ﴿ولا

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ١٨٧.
(٢) سورة المعارج ـ الآية ٤٢.
(٣) سورة الحجر ـ الآية ٣.
(٤) سورة الأنعام ـ الآية ٩٩.

تأكلوا **أموالكم بينكم بالباطل﴾**[1].

وقد يخرج النهي إلى أغراض مجازية تفهم من سياق الكلام أهمها:

١ ـ الدعاء: ويكون من أدنى إلى أعلى، ومن صغير إلى كبير، ومن ضعيف إلى قوي، ومن مخلوق إلى خالق، كقول المؤمن: **﴿ربَّنا لا تُزِغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾**[2].

ومثله قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر:

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مَطْليٌّ به القارُ أجربُ

٢ ـ الالتماس: وهو طلب الند من الند، والصديق من الصديق، كقول عمر ابن أبي ربيعة لفتاته:

فلا تقتليني إن رأيتِ صبابتي إليك، فإني لا يحلُّ لكم قتلي

ومنه خطاب ابن زيدون لولَّادة:

لا تحسبوا نأيكم عنَّا يُغَيِّرنا إنْ طالما غَيَّرَ النَّأْيُ المحبينا

٣ ـ الإرشاد: وهو طلب جاء على صورة النهي ظاهراً، وحمل معه النصيحة والإرشاد باطناً، كقول أبي العلاء المعري:

ولا تجلسْ إلى أهل الدنايا فإن خلائق السفهاء تُعْدي

ومثله قول شوقي:

لا تسمعوا للمرجفين وجهلهم فمصيبة الإسلام من جُهَّاله

٤ ـ التمني: وهو طلب موجه إلى غير العقلاء، كقول الشاعر:

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ١٨٨.

(٢) سورة آل عمران ـ الآية ٨.

ويا ليلة الأنس **لا تنقضي** فإن الحبيب علينا رضي

٥ ـ التهديد: وهو طلب يحمل في ثناياه معنى الإنذار والوعيد والتخويف، ويكون هذا الأسلوب بمخاطبة الأدنى قَدْراً ومنزلةً، كقول والد لولده: **لا تقلعْ** عن عنادك، **ولا** تدرسْ دروسك.

٦ ـ التحقير: وهو أسلوب هجائي، طالما استخدمه الشعراء ليذلوا مهجويهم، كقول الحطيئة للزبرقان بن بدر:

دعِ المكارمَ **لا ترحلْ** لبغيتِها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

٧ ـ التيئيس: ويكون في حال المخاطب الذي يهم بأمر لا يقوى عليه، وليس من أهله، كقول الشاعر:

لا تَعْرِضَنَّ لجعفرٍ متشبِّهاً بِنَدى يديه فلست من أنداده

ـ الاستفهام:

الاستفهام طلب العلم بشيءٍ لم يكن معلوماً من قبل.

ومن أدواته: الهمزة، وهل، ومن، وما، ومتى، وأيان، وأين، وأنّى، وكيف، وكم، وأي.

والاستفهام نوعان:

أ ـ **الاستفهام التصديقي**: وهو إدراك النسبة، أي تعيينها، وأدواته: هل والهمزة، مثل:

وهل تطيق وداعاً أيها الرجلُ؟

وكقوله تعالى: ﴿**قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعة فتهاجروا فيها**﴾[1].

ويكون الجواب عنها بـ «نعم» في حالة الإثبات، أو «لا» في حالة النفي.

---

(١) سورة النساء ـ الآية ٩٧.

ب ـ **الاستفهام التصوري**: وهو ما يراد به إدراك المفرد، أي تعيينه، وتستخدم فيه الهمزة مثل:

أسافرَ زيدٌ أم عليٌّ.
ويكون الجواب بتحديد المفرد أي زيد أو علي.
وبقية أسماء الاستفهام تستخدم للاستفهام التصوري.

ويخرج الاستفهام إلى أغراض مجازية تفهم من سياق الكلام وأهمها:

١ ـ الأمر:
كقوله تعالى: ﴿**أرأَيتَ الذي ينهى، عبداً إذا صلّى؟**أرأيتَ **إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى؟** أرأيتَ **إن كذَّب وتولى**﴾؟[١].
أيْ أخبرني أيها السامع عن هذا الرجل، هل هو على هدى حين منع عبداً من طاعة الله، أو أكان أمره لغيره بعدم إطاعة ربه من التقوى؟ ثم أخبرني عنه حين كذَّب رسولنا وأعرض عن طاعة الله؟ فهل يظن أنه سيفلت من عقابنا؟[٢].

٢ ـ النهي:
كقوله تعالى: ﴿**أتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه**﴾[٣]. أي لا تخشوهم، فالله أحق بالخشية.

٣ ـ التشويق:
كقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾؟[٤]

---

(١) سورة العلق ـ الآيات ٩ـ١٣.
(٢) د. بكري شيخ أمين ـ البلاغة العربية ـ ج١ ـ ص٩٥.
(٣) سورة التوبة ـ الآية ١٣.
(٤) سورة الصف ـ الآيتان ١٠ ـ ١١.

٤ ـ التسوية:

كقوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾[١].

٥ ـ النفي:

كقوله تعالى: ﴿**هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان**﴾[٢].

٦ ـ الإنكار:

كقوله تعالى: ﴿**أيحسبُ الإنسان أن يُتْرَكَ سُدَى**﴾[٣].

٧ ـ التعجب:

كقول المتنبي لبدر بن عمار الذي صرع أسداً بسوطه:

أمُعَفِّرَ الليثِ الهِزْبر بسوطه   لمن اتخذت الصارم المصقولا؟

٨ ـ التمني:

وفي التمني يتوجه السؤال إلى من لا يعقل، كقول الشاعر:

أسربَ القطا! هل من يعير جناحه   لعلي إلى من قد هويت أطير؟

٩ ـ التعظيم:

كقول طرفة:

إذا القوم قالوا: مَنْ فتى؟ خِلْتُ أنني   عُنيتُ فلم أكسلْ ولم أتبلَّدِ

وقول أبي فراس الحمداني:

أضاعوني، وأيَّ فتى أضاعوا؟   ليوم كريهة وسداد ثغر

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ٦.
(٢) سورة الرحمن ـ الآية ٦٠.
(٣) سورة القيامة ـ الآية ٣٦.

١٠ ـ التحقير:

كقولك: من هذا؟ مشيراً إلى حقارته أو حقارة منزلته.

١١ ـ التقرير:

كقولك لمتهم: أأنت سرقت المنزل؟

ومنه قوله تعالى: ﴿**أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟**﴾(١)

وقوله تعالى: ﴿**ألم نشرح لك صدرك؟**﴾(٢).

١٢ ـ التهويل:

كقوله تعالى: ﴿**القارعةُ، ما القارعةُ؟**﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿**الحاقةُ ما الحاقةُ؟**﴾(٤).

١٣ ـ الاستبعاد:

كقول شوقي وهو منفي في بلاد الأندلس:

أين شرق الأرض من أندلسٍ؟

وقولك لرجل عالي المقام: أين هذا منك؟

ـ التمني:

التمني، هو طلب الشيء المحبوب الذي لا يرجى، لاستحالة الحصول عليه، أو بُعْد مناله، كقول الشاعر:

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمَها عقودَ مدحٍ، فما أرضى لكم كَلمي

فالشاعر هنا يطلب مستحيلاً، إذ مهما تمنى المرءُ عَوْدَ الشباب، فإن أمنياته تبقى صرخة في واد، وحلماً لا يتحقق أبداً. وكذلك تمني الإنسان دنو كواكب السماء منه ليقطفها ويصوغ منها عقد مدح يزين بها عنق من يحب. وكل هذا يبقى

(١) سورة الأنبياء ـ الآية ٦٢.

(٢) سورة الانشراح ـ الآية ١.

(٣) سورة القارعة ـ الآيتان ١ـ٢.

(٤) سورة الحاقة ـ الآيتان ١ـ٢.

حلم شاعر، وحديث محب.

«وليت» هي أداة التمني الرئيسية، وقد يشركها في طلب التمني أدوات أخرى أقل منها شأناً، لأنها وضعت أصلاً لأغراض أخرى، ثم أصبحت تعاون «ليت» في أغراضها، وأهم هذه الأدوات هي: هل، ولو، ولعلَّ، وهلَّا، وألا.

هل: أداة في الأصل للاستفهام، وقد تخرج إلى التمني كقول الله تعالى: ﴿**فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا**﴾[1].

لو: حرف شرط غير جازم، لكنها قد تخرج أدة للتمني، كقول أبي فراس الحمداني:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي

لعل أو علَّ: أداة تَرَجٍّ، والترجي ممكن الوقوع والحدوث غالباً، وقد تخرج إلى التمني كقول الشاعر:

أسربَ القطا هل من يعير جناحه لعلي إلى من قد هويت أطير

هلَّا و «**ألا**»: وهما حرفا تنديم إذا سبقتا الفعل المضارع نحو:

هلَّا تقوم!

ألا تجيء معي!

ويرى بعض البلاغيين أن هاتين الأداتين تضيفان إلى معنى التنديم والتحضيض معنى التمني.[2]

---

(١) سورة الأعراف ـ الآية ٧.

(٢) د. بكري شيخ أمين ـ البلاغة العربية في ثوبها الجديد ـ ج١ ـ ص٨٤.

ـ النداء:

النداء، هو طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف من حروف النداء، يحل محل الفعل المضارع «أنادي» المنقول من الخبر إلى الإنشاء. وقد يحذف حرف النداء إذا فهم من الكلام، نحو: (يوسفُ أعرضْ عن هذا)؟.

أدوات النداء هي: **الهمزة، وأي، ويا، وأيا، وهيا، ووا**.
إنَّ الهمزة، وأي تستخدمان لنداء القريب، وسائر الأدوات لنداء البعيد.
ولكن قد ينزل القريب منزلة البعيد، فينادى عليه بغير الهمزة، وأي، إمّا تعظيماً له أو تحقيراً، أو تنبيهاً للغافل عن قربه. وقد ينزل البعيد منزلة القريب للإشعار بأنه على بعد وملازم للقلب كأنه قريب.
وقد يخرج النداء عن معناه الأصلي إلى معانٍ أخرى يستدل عليها من قرائن الكلام، وأهمها:[1]

١ ـ الاستغاثة:

كقول ابن الرومي:

ليس لي صبـرٌ ولا جلدُ   يا لقـومي عذلـوا واجتهـدوا

٢ ـ الندبة:

كقول المتنبي يرثي جدته:

فوا أسـفـا ألا أكـــبُّ مقـبـلاً   لرأسـك والصـدر الـذي ملئـا حزما!

٣ ـ التحسر:

كما في قول أبي فراس:

يا حســرةً ما أكـاد أحـملهـا   آخــرهـا مزعـج وأولـهـا

---

(١) د. أحمد أبو حاقة ـ البلاغة والتحليل الأدبي ـ ص٧٧.

٤ ـ الزجر:

كما في قول الحارث بن حلزة مخاطباً عمرو بن كلثوم يوم احتكمت قبيلتا بكر وتغلب إلى ملك الحيرة عمرو بن هند:

أيهـــا النـــاطق المــرقش عنــا عنـد عمـرو وهـل لذاك بقاءُ؟

٥ ـ التحقير:

كقول الحجاج مخاطباً أهل العراق بقوله: يا أهل العراق، يا معدن الشقاق والنفاق.

وكقول عتبة بن أبي سفيان مخاطباً أهل مصر، وقد بلغه عنهم خبراً أغضبه: «يا ألأم أنوفٍ ركبت بين أعين».

٦ ـ الإغراء:

كقولك لمن يشكو ويتألم: يا مظلوم.

٧ ـ التحبب:

كقولك لمن تريد أن تشعره بمحبتك له وعطفك عليه: يا حبيبي، ويا بني.

٨ ـ التعجب:

كقول الشاعر:

يا لكِ من قُبَّرةٍ بِمَعْمَرِ خلا لك الجوُّ فبيضي واصفري

٩ ـ الاستغاثة:

نحو: يا لله للمؤمنين.

الإنشاء غير الطلبي

الإنشاء غير الطلبي، هو الذي لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، أما وجوهه فهي:[1]

١ ـ المدح والذم:

وفعلاهما **نعم**، و**بئس**، وما جرى مجراهما مثل: **حبذا** و **لا حبذا**، والأفعال المحولة إلى **فَعُلَ**. نحو:

أ ـ نعمَ القرارُ الذي انتهيتَ إليه.

ب ـ بئسَ الزمانُ الذي يرفعُ الجاهلَ ويحطُّ العالمَ.

جـ ـ حبذا العيشُ يوم قومي جميعٌ   لم تفــرق أمــورنــا الأهــواء

د ـ لا حبذا اليومُ الذي تمَّ فيه فِراقُ الأحبةِ.

هـ ـ كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون. وخَبُثَ زيدٌ أصلاً.

٢ ـ صيغ العقود:

أي الاتفاقات التي تجري بين الناس في البيع والشراء والرهن والوصية، وما إلى ذلك. وقد تكون بالماضي نحو، بعتُ، واشتريتُ، ومنحتُ، ووهبتُ، أو بغير ذلك كقولك: أنا الموقع أدناه، والمستدعي فلان.

ولعلَّ عبارة زياد بن أبيه في خطبته بأهل البصرة من أبلغ ما يقال في هذا الصدد، فبعد أن تحدث عن حال البصرة السيئة، وعن مفاسدها، وخماراتها ومواخيرها، قال: «حرامٌ عليَّ الطعامُ والشرابُ حتى أسوّيها بالأرض هدماً وإحراقاً». فقد أخذ على نفسه عهداً بذلك، كأنه عقد صكاً.

---

(١) د. أحمد أبو حاقة ـ البلاغة والتحليل الأدبي ـ ص٧٨.

٣ ـ القسم:

وأدواته: الواو، والباء، والتاء، واللام.

الواو:

لا والـــذي تســـجـــد الـــجـــبـــاه له   ما لي بمـــا دون ثوبـــهـــا خبـــر

الباء:

باللهِ عليك لا تقلْ ظلماً.

التاء:

تاللهِ إنكَ لرجلٌ عظيم.

اللام:

كقول الشاعر:

لعـــمـــري ومـــا عمـــري عليَّ بهيِّـــنٍ   لقـــد نطقـــت بطلاً عليَّ الأقـــارعُ

٤ ـ التعجب:

وله قياساً صيغتان هما:

ما أفْعَلَهُ، أفْعِلْ به. مثال ذلك:

ما أبعـــدَ العيبَ والنقصـــانَ عن شرفي   أنـــا الـــثـــريا وذان الـــشـــيبُ والهـــرمُ

وقول القائل:

تسألني عن المتنبي، فأنعم به وأكرمْ، وأعظم به من شاعر.

ومن التعجب ما يرد سماعاً، كقول أبي نواس:

يبكي على طلل المـــاضين من أســـدٍ   لا درَّ درُّك، قُلْ لي من بنـــو أســـد؟

وقول قطري بن الفجاءة الشاعر الخارجي في أصحابه الشراة:

لله درُّ الشراةُ.

ومنه قول عبيد الله بن قيس الرقيات:

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشامَ غارةٌ شعواء؟!

٥ ـ الرجاء:

وفعلاه: **لعلَّ**، و **عسى**، وما يجري مجراهما، كقول القائل مخاطباً أحبته:

عسى أن تعودوا بعد طول غياب

وقول من يكدُّ في طلب الرزق:

لعلَّ اللهَ يرزقُني!



ـ الفصل السابع ـ

الإيجاز .
الإطناب .
المساواة .



الإيجاز

يرى ابن الأثير أن الإيجاز، هو حذف زيادات الألفاظ، وهو نوع من الكلام شريف، لا يتعلق به إلّا فرسان البلاغة.

والإيجاز يختص بالمعاني لا بالألفاظ، فربّ لفظٍ قليل يدل على معنى كثير، ورب لفظ كثير يدل على معنىً قليل.

ومثال هذا كالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة، فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها، ومن ينظر إلى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها.[1]

ويرى آخرون أن الإيجاز، هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل منها، وافية بالغرض المقصود، مع الإبانة والإفصاح.[2] كقوله تعالى: ﴿**خذ العفو وأمر بالمعروف، وأعرض عن الجاهلين**﴾.

فهذه الآية الكريمة جمعت مكارم الأخلاق بأسرها.

وكقوله تعالى: ﴿**ألا له الخلق والأمر**﴾.

ـ أقسام الإيجاز:

ينقسم الإيجاز إلى قسمين:

١ ـ إيجاز قصر:

هو التعبير عن المعنى المراد بلفظ أقل منه مع الوفاء به، كقوله تعالى:

---

(١) المثل السائر ـ القسم الثاني ـ ص٢٥٥.

(٢) سيد أحمد الهاشمي ـ جواهر البلاغة ـ ص٢٢٢.

﴿والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾. فقد استوعبت هذه الآية الكريمة أنواع المتاجر، وصنوف المرافق التي لا يبلغها العد.

وقوله عز من قائل: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾. هاتان كلمتان أحاطتا بجميع الأشياء على غاية الاستقصاء.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وعوِّدوا كل جسم ما اعتاد». فقد تضمن هذا الحديث من المعاني الطيبة شيئاً كثيراً.

ومنه قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾.

أما إذا لم يفِ اللفظ بالمعنى كان إخلالاً لا إيجازاً.

ومن الإخلال قول عروة بن الورد:

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا

أراد: يقتلون نفوسهم في السلم فأخلّ.

ومن الإخلال قول الحارث بن حلزة:

والعيش خيرٌ في ظلا ل النوك ممن عاش كدا

أراد: العيش الطيب في ظلال الحمق خير من العيش الخشن في ظلال العقل، فأخلّ.

وإيجاز القصر مطمح نظر البلغاء، وبه تتفاوت أقدارهم، وقد سئل بعض البلغاء: ما البلاغة؟ فقال: «إيجاز القصر». وقال أكثم بن صيفي: «البلاغة الإيجاز».

٢ - إيجاز الحذف:

يعرفه ابن الأثير بقوله: الإيجاز بالحذف، هو ما يحذف منه المفرد والجملة، لدلالة فحوى الكلام على المحذوف.[1]

والمحذوف إمّا أن يكون:

(١) المثل السائر - القسم الثاني - ص٢٦٤.

١ ـ حرفاً:

كقوله تعالى: ﴿**ولم أكُ بغياً**﴾، أي ولم أكن. وقوله تعالى: ﴿**تالله تفتأ تذكر يوسف**﴾ أي لا تفتأ.

وكقول امرىء القيس:

فقالت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أراد: **لا** أبرح.

٢ ـ اسماً مضافاً:

نحو قوله تعالى: ﴿**وجاهدوا في الله حق جهاده**﴾ أي في **سبيل** الله.

٣ ـ اسماً مضافاً إليه:

كقوله تعالى: ﴿**وواعدنا موسى ثلاثين ليلة، وأتممناها بعشر**﴾ أي بعشر **ليالٍ**.

٤ ـ إسماً موصوفاً:

كقوله تعالى: ﴿**ومن تاب وعمل صالحاً**﴾ أي وعمل **عملاً** صالحاً. وكقول الحجاج: «أنا ابن جلا» أي ابن **رجلٍ** جلا.

٥ ـ إسماً صفةً:

كقوله تعالى: ﴿**وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينةٍ غصبا**﴾أي كل سفينةٍ **صالحةٍ**.

٦ ـ قسماً:

نحو: لأجتهدنَّ. أي **والله** لأجتهدنَّ.

٧ ـ جواب قسم:

نحو قوله تعالى: ﴿**ق. والقرآن المجيد، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم**﴾.

والتقدير: ق. والقرآن المجيد، **لتبعثن**.

٨ ـ شرطاً:

نحو: ﴿**اتبعوني يحببكم الله**﴾ أي : **إن** تتبعوني يحببكم الله .

٩ ـ جواب الشرط :

نحو: ﴿**ولو ترى إذ وقفوا على النار**﴾ . أي **لرأيت أمراً فظيعاً** .

١٠ ـ مسنداً :

نحو قوله تعالى : ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض، ليقولن الله**﴾ . أي **خلقهن** الله .

١١ ـ مسنداً إليه :

كقول أبي تمام :

أمــاويُّ ما يغـنـي الثــراء عن الفتى   إذا حشـرجت يومـاً وضاق بها الصدرُ

أي إذا حشرجت **النفسُ** يوماً .

١٢ ـ جملة :

نحو قوله تعالى : ﴿**كان الناسُ أمةً واحدة، فبعث الله النبيين**﴾ أي **فاختلفوا** فبعث الله النبيين .

١٣ ـ جملاً :

كقوله تعالى : ﴿**فأرسلون يوسفُ أيها الصِّديقُ**﴾

أي **فأرسلوني إلى يوسف لأستعبره الرؤيا، فأرسلوه فأتاه، وقال له** : يوسفُ أيها الصديق .

أما دواعي الإيجاز فكثيرة منها : الاختصار، وتسهيل الحفظ، وتقريب الفهم، وضيق المقام، وإخفاء الأمر على غير السامع، والضجر والسآمة، وتحصيل المعنى الكثير باللفظ اليسير.

الإطناب

هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة.

وإن كانت زيادة اللفظ على المعنى لغير فائدة، فهو التطويل.

وإن كانت الزيادة لغير فائدة ومتعينة، فإنها تسمى حشواً.

والحشو نوعان:

حشو مفسد للمعنى: كقول المتنبي:

ولا فضـــل فيهـا للشجـاعـة والنـدى وصـبــر الـفـتى لولا لقــاء شعــوب

فإن لفظ (الندى) فيه حشو مفسد للمعنى، لأن المعنى أنه لا فضل في الدنيا للشجـاعة والصبر والندى لولا الموت، وهذا الحكم صحيح في الشجاعة، وفي الصبر دون الندى، لأن الشجاع لو علم أنه يخلد في الدنيا لم يخش الهلاك في الإقدام، فلم يكن لشجاعته فضل، بخلاف الباذل ماله، فإنه إذا علم أنه يموت هان عليه بذله، فلو علم أنه يخلد ثم جاد بماله كان جوده أفضل، فالشجاعة لولا الموت لم تحمد، والندى بالضد.[1]

والحشو غير المفسد للمعنى، كقول أبي العيال الهذلي:

ذكـــرتُ أخـــي فعــاودنـي صداع الــرأس والــوصب

فإن لفظ (الرأس) فيه، حشو غير مفسد للمعنى.

ومنه قول زهير:

---

(١) د. عبده عبد العزيز قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ ٢٨٧.

وأعـــلم علم الـــيوم والأمس قبـــله   ولـــكـــنـــني عن علم ما في غدٍ عمِ

فإن لفظ (قبله) مستغنى غير مفسد.

ويعرف السكاكي الإطناب بأنه، تأدية المعنى بعبارة زائدة على متعارف أوساط البلغاء لأغراض يسعى الأديب الأريب إلى تحقيقها.

والإطناب أنواع كثيرة منها:

١ ـ ذكر الخاص بعد العام:

كقوله تعالى: ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى**﴾. وفائدته هنا التنبيه على مزية وفضل في الخاص، حتى كأنه لفضله ورفعته جزءٌ آخر مغاير لما قبله.

ولهذا خص الصلاة الوسطى بالذكر لزيادة فضلها.

٢ ـ ذكر العام بعد الخاص:

كقوله تعالى: ﴿**ربِّ اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات**﴾. وهذا من دعاء سيدنا نوح لنفسه ولوالديه وللمؤمنين. وفائدته شمول بقية الأفراد، والاهتمام بالخاص لذكره ثانياً في عنوان العام، بعد ذكره أولاً في عنوان الخاص.

٣ ـ الإيضاح بعد الإبهام:

ويأتي ذلك لتقرير المعنى في ذهن السامع بذكره مرتين، مرة على سبيل الإبهام والإجمال، ومرة على سبيل التفصيل والإيضاح. كقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم**﴾.

فقد جاء بلفظ التجارة بشكل عام، ثم وضحها وبينها بقوله: ﴿**تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم**﴾.

فقد جاء بلفظ التجارة بشكل عام، ثم وضحها وبينها بقوله: ﴿**تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم**﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿**وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين**﴾.

فقوله: (ذلك الأمر) عام مبهم، وضحه بقوله: (أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين). وفائدته توجيه الذهن إلى معرفته، وتفخيم شأن المبين، وتمكينه في النفس، فأبهم في كلمة (الأمر)، ثم وضحه بعد ذلك تهويلاً لأمر العذاب.

٤ ـ التوشيح:

وهو أن يؤتى في آخر الكلام بمثنى مفسر بمفردين ليرى المعنى في صورتين، فتخرج بذلك من الخفاء والغموض إلى الظهور والوضوح. نحو: العلم علمان، علم الأبدان، وعلم الأديان.

ومن ذلك قول ابن الرومي:

إذا أبو القاسم جادت لنا يده ... لم يحمد الأجودان: البحرُ والمطرُ
وإن أضاءت لنا أنوار غرته ... تضاءل النيران: الشمس والقمر

ومن ذلك قول ابن المعتز:

سقتني في ليلٍ شبيه بشعرها ... شبيهة خديها بغير رقيب
فما زلت في ليلين: شعرٍ وظلمةٍ ... وشمسين من خمرٍ ووجه حبيب

وقول شوقي:

بأيديهم نوران: ذكرٌ وسنةٌ ... فما بالهم في حالك الظلمات

ومن ذلك قول محمد بن وهيب:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ... شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

ومنه قول الشاعر:

ثلاثة تنفي عن المرء الحزن ... الماء والخضرة والوجه الحسن

٥ ـ التكرار:

وهو ذكر الشيء أكثر من مرة لداعٍ بلاغي:

أ ـ كتأكيد الإنذار في قوله تعالى: ﴿**كلّا سوف تعلمون، ثم كلّا سوف تعلمون**﴾.

ب ـ زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكمال بالقبول، كقوله تعالى: ﴿**وقال الذي آمن: يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد، ويا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع**﴾

جـ ـ التلذذ بذكر المكرر، كقول الشاعر:

سقى الله نجداً والسلام على نجد   ويا حبذا نجدٌ على القرب والبعد

د ـ إظهار التحسر، كقول الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة:

فيا قبر معنٍ أنت أولّ حفرةٍ   من الأرض خطت للسماحة موضعا

ويا قبر معنٍ كيف واريت جوده   وقد كان منه البر والبحر مترعا

هـ ـ الاستيعاب كقولك: اقرأ الكتابَ باباً بابا، واحفظ الدرس كلمة كلمة.

٦ ـ الإيغال:

الإيغال في اللغة المبالغة، تقول أوغل في الأمر إذا أمعن فيه وبالغ. أما في الاصطلاح البلاغي، فقد عرفه القزويني بأنه، ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، كزيادة المبالغة في قول الخنساء:

وإنّ صخراً لتأتم الهداة به   كأنه علمٌ في رأسه نار

فلم ترض أن تشبه صخراً بالجبل المرتفع المعروف بالهداية، حتى زادت عليه بقولها: في رأسه نار.

ومنه قول ذي الرمة:

قف العيس في أطلال مكة واسأل   رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل

أظن الـذي يجـدي عليك سؤالهـا   دمـوعـاً كتبـذير الجمـان المفصـل

والإيغال في البيتين تمّ بالوصفين، (المسلسل) و (المفصل).

٧ ـ **التذييل:**

التذييل، هو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها، تقويةً لها، وهو نوعان:

أ ـ **نوع يجري مجرى المثل في الاستقلال بنفسه وفي التمثيل به،** كقوله تعالى: ﴿**قل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء**﴾.

«إن النفس لأمارة بالسوء تذييل جارٍ مجرى المثل».

ومن ذلك قول الحطيئة:

تزور فتى يعـطي على الحمـد مالـه   ومن يعط أثمـان المحـامـد يحمـدِ

والشطرة الثانية من البيت تذييل جار مجرى المثل.

ب ـ **النوع الثاني: تذييل لا يجري مجرى المثل،** لأنه لا يستقل بمعناه، بل يتوقف على ما قبله، كقوله تعالى: ﴿**ذلك جزيناهم بما كفروا، وهل نجازي إلاّ الكفـور**﴾. أي وهل نجازي الجزاء المذكور فيما قبل، وهو إرسال سيل العرم، وتبديل الجنتين، إلاّ الكفور.

ومنه قول المتنبي:

تمسي الأمـاني صرعى دون مبلغـه   فمـا يقـول لشـيءٍ ليت ذلـك لي

وقول ابن بناتة:

لم يبـق جودك لي شيئـاً أؤمـله   تركـتـني أصـحب الـدنيا بلا أمـل

وقد تمَّ التذييل في الشطرة الثانية في كل من البيتين.

٨ ـ الاحتراس، ويقال له التكميل:

وهو أن يؤتى بكلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم. والاحتراس يكون في وسط الكلام كقول طرفة بن العبد:

فسقا ديارك غير **مفسدها** صَوْبُ الربيع وديمة تهمي

فإن قوله (فسقى ديارك) كما يحتمل أن يكون على وجه الإصلاح، يحتمل أن يكون على وجه الإفساد، وقد أزال الشاعر الاحتمال غير المقصود بقوله (غير مفسدها).

ومنه قول ابن المعتز:

صببنا عليها (ظالمين) سياطنا فطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرجلُ

فالاحتراس هنا في قوله (ظالمين)، فقدق دفع به توهم أن يفهم بأن فرسه بليدة تستحق الضرب.

وهناك نوع ثانٍ من الاحتراس يأتي في آخر الكلام، كقوله تعالى: ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين**﴾.
فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين لتوهم أن ذلتهم لضعفهم، فلما قيل: (أعزة على الكافرين) علم أنها منهم تواضع لهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿**ويطعمون الطعام على حبه**﴾ أي: مع حب الطعام واشتهائهم له، وذلك أبلغ في الكرم. فلفظ (على حبه) فضلة للاحتراس ولزيادة التحسين في المعنى.

٩ ـ التتميم:

وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة (مفعول به، أو حال، أو تمييز، أو جار ومجرور) تفيد نكتة.

فمن ذلك قول زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان:

من يلق يوماً **على علاته** هرماً يلق السماحة منه والندى خلقا

فقوله (على علاته) أي في جميع أحواله، تتميم.

١٠ ـ الاعتراض:

وهو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنىً بجملة أو أكثر، لا محل لها من الإعراب لفائدة سوى دفع الإبهام:

أ ـ كالتنزيه في قوله تعالى: ﴿**ويجعلون لله البنات ـ** سبحانه **ـ ولهم ما يشتهون**﴾.

ب ـ وكالدعاء في قول المتنبي:

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها ـ وحاشاك ـ فانيا

جـ ـ وكالتنبيه في قول الشاعر:

واعلم ـ **فعلم المرء ينفعه** ـ أن سوف يأتي كلُّ ما قُدِرا

د ـ وكالتخصيص كقوله تعالى: ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه** ـ حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين ـ **أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير**﴾.

هـ وكالمطابقة مع الاستعطاف في قول المتنبي:

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه ـ **يا جنتي** ـ لرأيت فيه جهنما

ويرى بعض البلاغيين أن الإطناب أرجح من الإيجاز، وحجتهم في ذلك أن المنطق إنما هو البيان، والبيان لا يكون إلاّ بالإشباع، والإشباع لا يقع إلاّ بالإقناع. وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشده إحاطة بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إلاّ بالاستقصاء والإطناب.[1]

---

(١) سيد أحمد الهاشمي ـ جواهر البلاغة ـ **٢٣٣**.

المساواة

هي تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له، أي أن تكون الألفاظ على قدر المعاني، لا يزيد بعضها على بعض.

ولا حاجة إلى المزيد من الشرح والتفصيل على المساواة، لأنها هي الأصل المقيس عليه، والدستور الذي يعتمد عليه، وأن الإيجاز والإطناب يصبان في مجرى واحد هو «المساواة»، كقوله تعالى: ﴿**وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله**﴾.

وكقوله تعالى: ﴿**كل امرىءٍ بما كسب رهين**﴾.

وكقوله تعالى: ﴿**من كفر فعليه كفره**﴾.

وأخيراً، ليست البلاغة في الإيجاز، ولا في الإطناب، ولا في المساواة، وإنما البلاغة في مطابقة مقتضى الحال.

الفصل الثامن

علم البديع

المحسنات اللفظية .

المحسنات المعنوية .



علم البديع

البديع لغة: المُخْتَرعُ الموجَدُ على غير مثال سابقل، وهو مأخوذ ومشتق من قولهم: بدع الشيء، وأبدعه: اخترعه لا على مثال.

والبديع على وزن فعيل، بمعنى مفعول، ويأتي البديع بمعنى اسم الفاعل، كقوله تعالى: ﴿**بديع السموات والأرض**﴾ أي مبدعها.[1]

والبديع اصطلاحاً: هو العلم الذي يعرف الأديب به وجوه تحسين كلامه، بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، ورعاية وضوح الدلالة على ما يريد التعبير عنه.

وهذه الرعاية المزدوجة تعني في شقها الأول علم المعاني، وفي شقها الثاني علم البيان، لأن وجوه تحسين الكلام لا تجيء قبلهما، ولا بدونهما. وبعض البلاغيين كعبد القاهر الجرجاني والزمخشري جعلوا علم البديع تابعاً لعلمي المعاني والبيان.

وسرُّ التبعية أنه لا يكون بنية قائمة بنفسها في الهيكل العام للنظم القرآني، كما أنه هو السبب في أن إلمامهم به قد جاء جزئياً لا كلياً، واستطراداً لا تأسيساً.[2]

وقد مرَّ مصطلح البديع بمفهومين:[3]

١ ـ المفهوم الأول:

ويمتد من أوائل القرن الثالث إلى أوائل القرن السابع حيث كان يدل على فنون البلاغة المختلفة.

---

(١) سيد أحمد الهاشمي ـ جواهر البلاغة ـ ٣٦٠.

(٢) د. عبده عبد العزيز قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ ص٣٠٥.

(٣) د. محمود أبو عجمية ورفاقه ـ علوم البلاغة ـ ص١٤٠.

ويفهم من كلام الجاحظ[1] أن الرواة أطلقوا مصطلح البديع على المستطرف الجديد من الفنون الشعرية، وعلى بعض الصور البيانية التي يأتي بها الشعراء في أشعارهم فتزيدها حسناً وجمالاً، وعلى فنون بلاغية مختلفة.

ويرى أبو الفرج الأصفهاني أن مسلم بن الوليد المتوفى **٢٠٨** هـ أول من أطلق هذا المصطلح (البديع) وتبعه فيه جماعة أشهرهم أبو تمام الطائي.

وكتاب البديع لابن المعتز المتوفى **٢٩٦** هـ يمثل مفهوم هذا المصطلح في مرحلته الأولى، حيث عرض فيه لبعض صور الإطناب وهو من علم المعاني، كما عرض فيه للاستعارة والتشبيه والكناية من مباحث علم البيان، إضافة لما عرضه مما أدخله المتأخرون في علم البديع.

أما البديع عند عبد القاهر الجرجاني فيعني فنون البلاغة المختلفة.

٢ ـ المفهوم الثاني للبديع:

ويبدأ هذا المفهوم عند السكاكي المتوفى سنة **٦٢٦** هـ الذي أخرج المحسنات المعنوية واللفظية من البلاغة، وسماها محسنات ووجوهاً يصار إليها بقصد تحسين الكلام، ولم يسمها بديعاً، وقد ذكر منها ستة وعشرين محسناً.

وأول من أطلق مصطلح «البديع» على هذه المحسنات والوجوه بدر الدين بن مالك المتوفى **٦٨٦** هـ في كتابه «المصباح في علم المعاني والبيان والبديع» الذي لخص فيه الجزء الثالث من كتاب «مفتاح العلوم» للسكاكي. وذكر ابن مالك في كتابه ثمانية وخمسين نوعاً من فنون البديع.

وفي تلخيص «المفتاح» و «الإيضاح» سار الخطيب القزويني المتوفى سنة **٧٣٩** هـ على خط السكاكي، فعد البلاغة علمين هما: علم المعاني، وعلم البيان، وقسم فنون البديع إلى محسنات معنوية ومحسنات لفظية، وعرف البديع بقوله: «هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة»، واستقر هذا المفهوم، وعليه نهج البلاغيون.

---

(٤) البيان والتبيين ـ ج٤ ـ ص٥٥.

أما المحسنات البديعية فتقسم إلى قسمين:

١ ـ محسنات معنوية:

وهي التي يكون التحسين بها راجعاً إلى المعنى قصداً، وإلى اللفظ عرضاً، لأنه كلما أفيد باللفظ معنى حسن، تبعه حسن اللفظ الدال عليه كالطباق بين (يسر) و (يعلن) في قول الله تعالى: ﴿**يعلم ما يسرون وما يعلنون**﴾.

ومن المحسنات المعنوية:

أ ـ المطابقة أو الطباق أو التضاد:

ثلاثة مصطلحات لمسمى واحد، والمطابقة هي الجمع في الكلام الواحد بين الشيء الواحد وضده، أو مقابله ظاهراً كان ذلك الجمع أو خفياً، وبالإيجاب في الطرفين أو في أحدهما، وسواء كان الطرفان حقيقيين أو مجازيين، اسمين أو فعلين أو حرفين أو مختلفين. فمن الطباق بين اسمين قوله تعالى: ﴿**هو الأول والآخر والظاهر والباطن**﴾.

وكقوله تعالى: ﴿**وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود**﴾.

ومن الطباق بين فعلين قوله تعالى: ﴿**ثم لا يموت فيها ولا يحيا**﴾.

ومن الطباق بين حرفين قوله تعالى: ﴿**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف**﴾.

أو مختلفين كقوله تعالى: ﴿**ومن يضلل اللهُ فما له من هاد**﴾.

ومن الطباق الظاهر بالإيجاب في أحد الطرفين، وبالسلب في الآخر:

قوله تعالى: ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**فلا تخشوا الناس واخشوني**﴾.

ومن ذلك قول السموأل:

ونكــر إن شئنــا على النـاس قولهم ولا ينــكــرون الـقــول حين نقــول

ومن الـطبـاق بالإيجاب والطرفان مجازيان، قوله تعالى: ﴿**أو من كان ميتاً فأحييناه**﴾ أي ضالاً فهديناه.

ومن ذلك قول الشاعر:

حلو الشمـائـل وهـو مرٌّ باسـلٌ يحمي الذمار صبيحة الإرهاق

فقوله (حلو) و (مر) جارٍ مجرى الاستعارة، إذ ليس في الإنسان ولا في شمائله ما يدرك بحاسة الذوق.

ب ـ التورية:

التورية لغة، مصدر وريت الخبر توريةً: إذا سترته وأظهرت غيره.

أما التورية اصطلاحاً، فهي أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان، أحدهما قريب غير مقصود ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد مقصود، ودلالة اللفظ عليه خفية، فيتوهم السامع أنه يريد المعنى القريب، وهو إنما يريد المعنى البعيد بقرينة تشير إليه ولا تظهره، وتستره عن غير المتيقظ الفطن، كقوله تعالى: ﴿**وهو الذي يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم بالنهار**﴾.

أراد بقوله (جرحتم) معناه البعيد، وهو ارتكاب الذنوب، ولأجل هذا سميت التورية إيهاماً وتخييلاً.[1]

ومن التورية اللطيفة قول سراج الدين الوراق:

أصـون أديم وجهي عن أناسٍ لقــاء المـوت عنـدهم الأديبُ
وربُّ الشعــر عنــدهم بغيضٌ ولــو وافى به لهـم «حـبيبُ»

فالتورية في كلمة «حبيب»، وقد قدم لها بكلمة «بغيض» ليوهم بها ويبعد عن المعنى المراد وهو الشاعر حبيب بن أوس الطائي، المكنى بأبي تمام.

---

(١) سيد أحمد الهاشمي ـ جواهر البلاغة ـ ٢٦٢.

ومن هذا قول الشاعر:

أبيات شعرك كالقصور ولا قصور بها يعوق
ومن العجائب لفظها حُرٌّ ومعناها «رقيق»

فالتورية بكلمة «رقيق»، والمعنى الأصلي لها «عبد»، وقدم لها بكلمة «حر»، ويقصد المعنى البعيد لها، أي معناها لطيف.

ومن ذلك قول الشاعر:

برغم شبيبٍ فارق السيفُ كفَّه وكانا على العِلّاتِ يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسيٌّ وأنت «يماني»

يريد أن كف شبيب وسيفه متنافران لا يجتمعان، لأن شبيباً كان قيسياً، والسيف يقال له «يماني» فورَّى به عن الرجل المنسوب إلى اليمن، ومعلوم ما بين قيس واليمن من التنافر، فظاهر قوله «يماني» أنه رجل منسوب إلى اليمن، ومراده البعيد الدلالة على السيف، لأن كلمة يماني من أسمائه.

والتورية قسمان:

أ ـ التورية المجردة:

وهي ما لم يصحبها شيء يلائم المعنى المورى به كقوله تعالى: **﴿الرحمن على العرش استوى﴾**.

وبيان أنها تورية مجردة هو أن لكلمة «استوى» معنيين: أحدهما قريب ظاهر غير مقصود بمعنى استقر في المكان، أي لبث فيه ومكث، والآخر، بعيد خفي مقصود بمعنى استولى وملك.

وإنما كان المعنى الأول غير مقصود، لأنه لا يلائم الحق جلت قدرته.

ومن التورية المجرَّدة قوله تعالى: **﴿هو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾**.

ومن ذلك قول أبي بكر وقد سئل على النبي في رحلة الهجرة «هادٍ يهديني»،

قصد ـ رضي الله عنه ـ هادياً يهديني إلى الإسلام، لكنه ورّى عنه بهادي الطريق، وهو الدليل في السفر.

ب ـ التورية المرشحة:

وهي التي صحبها شيء يلائم المورى به (عكس المجردة)، وقد سميت مرشحة لأنها تقوّت بملائم هذا المعنى على الإيهام به، وعلى التوجيه إليه من جهة، وعلى إبعاد الذهن نوعاً ما عن المعنى المورى عنه من جهة ثانية.

والشيء الملائم للمعنى المورى به إمّا أن يأتي قبل كلمة التورية، كقوله تعالى: ﴿**والسماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون**﴾.

فالتورية في كلمة «أيدٍ». والمعنى المورى به هو الجارحة، والمعنى المورى عنه هو القدرة. وقد ذكر قبل كلمة «أيد» ملائم المعنى المورى به وهو جملة «بنيناها».

وقد يأتي المعنى به بعد كلمة التورية، كقول القاضي عياض يصف صيفاً بارداً:

كأن كانون أهدى من ملابسه ... لشهر تموز أنواعاً من الحلل
أو الغزالة من طول المدى خرفت ... فما تفرق بين الجدي والحمل

«كانون»، من أشهر البرد، و«تموز» من أشهر الدفء، و«الجدي» و«الحمل» نوعان من النعم. والتورية جاءت في كلمة «الغزالة» فمعناها البعيد المورى عنه هو «الشمس»، ومعناها القريب المورى به هو «الحيوان المعروف»، وقد أتى بعد كلمة «الغزالة» بملائم المعنى المورى به كلمة «خرفت».

وكقول الشاعر:

مذ همت من وجدي في خالها ... ولم أصل منه إلى اللثم
قالت قفوا واستمعوا ما جرى ... لخالي قد هام به عمي

التورية في لفظ «خالها»، فإنه يحتمل خال النسب وهو المعنى القريب

المورى به، وقد رشحه بكلمة «العم»، ويحتمل أن يكون «الشامة السوداء» التي تظهر غالباً في الوجه وتكون مظهر حسن، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه.

جـ ـ الاستخدام:

الاستخدام، هو ذكر لفظ مشترك بين معنيين، يراد به أحدهما، ثم يعاد عليه ضمير، أو إشارة، بمعناها الآخر، أو يعاد عليه ضميران يراد بثانيهما غير ما يراد بأولهما.

فالأول:

كقوله تعالى: ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾، أريد أولاً بالشهر «الهلال»، ثم أعيد عليه الضمير أخيراً بكلمة «فليصمه» بمعنى أيام رمضان.

ومنه قول الشاعر معاوية بن مالك:

إذا نزل السماءُ بأرض قومٍ رعيناه وإن كانوا غِضابا

أراد بالسماء «المطر» وبضميره في «رعيناه» «النبات»، وكلاهما معنى مجازي للسماء.

والثاني كقول البحتري:

فسقى الغضا والساكنيه وإن هُمو شبُّوهُ بين جوانحي وضلوعي

فالغضا، شجر بالبادية، وضمير ساكنيه أولاً راجع إلى الغضا، باعتبار المكان، وضمير شبوه عائد ثانياً إلى الغضا بمعنى النار الحاصلة من شجر الغضا، وكلاهما مجاز للغضا.

د ـ الافتتان:

هو الجمع بين فنين مختلفين، كالغزل والحماسة، والمدح والهجاء، والتعزية والتهنئة.

فمن ذلك قول عبدالله بن همام السلولي جامعاً بين التعزية والتهنئة حين دخل على يزيد، وقد مات أبوه معاوية وخلفه في الخلافة: آجرك الله على الرزية، وبارك الله في العطية، وأعانك على الرعية، فقد رزئت عظيماً، وأُعطيت جسيماً، فاشكر

الله على ما أُعطيت، واصبر على ما رزيت، فقد فقدت الخليفة، وأُعطيت الخلافة، ففارقت خليلاً ووهبت جليلاً:

اصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة　　واشكر حباء الذي بالملك أصفاك
لا رُزْءَ أصبح في الأقوام نعلمه　　كما رزئت ولا عقبى كعقباك.

وكقول عنترة يجمع بين الغزل والحماسة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهلٌ　　مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها　　لمعت كبارق ثغرك المتبسم

هـ ـ الاستطراد:

هو أن يخرج المتكلم من الغرض الذي هو فيه إلى غرض آخر لمناسبة بينهما، ثم يرجع فينتقل إلى إتمام الكلام الأول، كقول السموأل:

وإنّا لقومٌ لا نرى القتل سبةً　　إذا ما رأته عامرٌ وسلول
يقرِّبُ حبُّ الموت آجالنا لنا　　وتكرهه آجالهم فتطول

فسياق القصيدة للفخر بقومه، وانتقل منه إلى هجاء قبيلتي (عامر وسلول)، ثم عاد إلى مقامه الأول وهو الفخر بقومه.

وكقوله:

لنا نفوسٌ لنيل المجد عاشقةٌ　　فإن تسلَّت أسلناها على الأسل
لا ينزل المجد إلاّ في منازلنا　　كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

٦ ـ المقابلة:

وقد جعلها السكاكي والقزويني شعبة من الطباق، فمن ذلك قوله في الإيضاح: «ودخل في المطابقة ما يخص باسم المقابلة، وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو معانٍ متوافقة، ثم يؤتى بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب»[1].

---

(١) الإيضاح ـ ج٦ ـ ص١٦، والمفتاح ـ ص١٧٩.

والمقابلة:

أ ـ إما ثنائية:

كقوله تعالى: ﴿**فليضحكوا قليلاً، وليبكوا كثيراً**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله**﴾.

وكقول الرسول ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه، والخرق لا يكون في شيء إلاّ شانه».

وكقول النابغة الجعدي:

فتى تمَّ فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه ما يسوءُ الأعاديا

وقول البحتري:

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ... وريق الغيث أحياناً يباكيها

ب ـ وإمّا ثلاثية:

كقوله تعالى: ﴿**يحل لهم الطيبات، ويحرِّمُ عليهم الخبائث**﴾.

وكقول أبي دلامة:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا ... وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

وقول البحتري:

فإذا حاربوا أذلوا عزيزاً ... وإذا سالموا أعزوا ذليلاً

جـ ـ وإمّا رباعية:

كقوله تعالى: ﴿**فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأمّا من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى**﴾.

وكقول أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ في وصيته قبيل موته: «هذا ما أوصى به أبو بكر عند آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها».

وقول الطغرائي:

حلو الفكاهة، مرٌّ الجد قد مزجت بشدة البأس منه رقة الغزل

وقول جرير:

وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شر عنكم بشماله

وقول أبي تمام:

يا أمةً كان قبح الجور يسخطها دهراً فأصبح حسن العدل يرضيها

د ـ وإمّا خماسية:

كقول صفي الدين الحلي:

كان الرضا بدنوي من خواطرهم فصار سخطي لبعدي عن جوارحهم

فالمقابلة بين «كان وصار» و «الرضا والسخط» و «الدنو والبعد»، و «من وعن» و «خواطرهم وجوارهم».

وقول المتنبي:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

هـ ـ وإمّا سداسية:

كقول شرف الدين الأربلي:

على رأس عبدٍ تاجُ عزٍّ يزينه وفي رجل حرٍّ قَيْدُ ذلٍّ يشينه

وفي هذا القدر كفاية للتدليل على المحسنات المعنوية التي يزيد عددها على أربعين محسناً معنوياً.

المحسنات اللفظية

من المحسنات اللفظية السجع، والجناس.

أ - السجع:

السجع لغة كما في لسان العرب والصحاح في مادة «سجع» سجع يسجع سَجْعاً: استوى واستقام وأشبه بعضه بعضاً.

والسجع: الكلام المقفى.

والجمع: أسجاع وأساجيع.

وسَجَعَ وسَجَّعَ: تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن، ويرى ابن جِنّي: أن السجع سمي سجعاً لاشتباه أواخره وتناسب فواصله.

أما الرماني: ان السجع هو تكلف التقفية من غير تأدية الوزن[1].

أما ابن الأثير فيرى أن حدّ السجع: هو تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد.

وأن الأصل في السجع هو الاعتدال في مقاطع الكلام، وأن يحمل على الطبع في غير تكلُّف، فإن كان كذلك فهو في غاية الحسن.

وقد ذم السجع بعض البلاغيين معتمدين على حديث رسول الله ﷺ الذي جاء في سنن أبي داود ومفاده أن رسول الله ﷺ قضى في جنين امرأة ضربتها أخرى، فسقط ميتاً بغُرَّة[4] على جماعة الضاربة، فقال رجل منهم: كيف نَدي[5] من لا

---

(١) د. بكري شيخ أمين - البلاغة العربية - ج٣ - ص١١٩.

(٢) المثل السائر - القسم الأول - ص٢١١. (٣) الباب التاسع عشر من كتاب الديات.

(٤) بِغُرَّة: أي بعتق عبد أو أمة. (٥) ندي: من ودى، يدي، أي دفع الدية.

شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهَلّ، وَمِثْلُ دمه يُطَلّ[1]. قال ﷺ: «إياكم وسجع الكهان»، وفي رواية أخرى أنه قال: «أسجع كسجع الجاهلية وكهانتها؟».

ومن هذا الحديث يستدل أن الرسول ﷺ لم يذم السجع على إطلاقه، وإنما ذمَّا نوعاً محدداً من السجع كان الكهان في الجاهلية، كشِقٍّ، وسطيح ومسيلمة، وغيرهم يستخدمونه، ويخبرون به عن الأمور الغيبية، والحوادث الكونية، والأوهام الظنية، فيكذبون ويوقعون الناس في الأحابيل والمهالك.

وللحق نقول: إن كثيراً من علماء البلاغة توقفوا حين رأوا هذا الحديث الشريف، عن وصف كلام الله تعالى، ولا سيما السور المكية بالسجع، وأحَلُّوا مكان هذه الكلمة لفظة «الفاصلة» آخذاً من الآية الكريمة: ﴿**كتاب فُصِّلت آياته**﴾[2]. وقالوا: إن الله ـ جلَّ جلاله ـ وصف آيات كتابه بـ «فُصِّلَت»، ولم يقل «سُجِّعَت»، وأنه تأدباً مع الله تعالى وتقديراً وتعظيماً لرسوله الكريم يلزم أن لا نطلق على ما في القرآن الكريم صفة «السجع»، وإنما نقول: «الفواصل القرآنية». وأكدَّ كثيرون منهم أنه لا يجوز لنا أن نتجاوز ذلك.[3]

والحقيقة التي لا مراء فيها أن كثيراً من السور القرآنية المكية، فاضت بهذا الكلام المقفى المتناسب الأواخر، فمن ذلك سورة النجم بقوله تعالى: ﴿**والنجم إذا هوى، ما ضلَّ صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلّا وحيٌ يوحى، علَّمه شديد القوى، ذو مِرَّةٍ فاستوى، وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾[4].

وكقوله تعالى في سورة طه: ﴿**طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلّا تذكرةً لمن يخشى. تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلا، الرحمـٰن على العرش**

(١) يُطَلُّ: من طلَّ دمه، أي أهدره.

(٢) سورة فُصِّلت: الآية ٣.

(٣) د. بكري شيخ أمين ـ البلاغة العربية ـ ج٣ ـ ص١٢٠.

(٤) سورة النجم ـ الآيات ١ ـ ١١.

استوى، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وإن تجهرْ بالقول فإنه يعلم السِّرَّ وأخفى، الله لا إله إلاّ هو له الأسماء الحسنى﴾[1].

وقد ورد السجع في أحاديث الرسول ﷺ، فمن ذلك قوله: «أيها الناس أفْشوا السلامَ، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

ومن أحاديثه ﷺ قوله لابن ابنته عليهما السلام «أعيذه من الهامَّةِ والسامةِ، وكلِّ عينٍ لامة».

وكقوله ﷺ: «ارجعن مأزوراتٍ غَيْرَ مأجوراتٍ».[2]

ومنه قوله ﷺ: «اللهم اقبلْ توبتي، واغسل حوبتي».

وقوله ﷺ: «اللهم أعْطِ منفقاً خلفاً، وأعطِ مُمْسكاً تلفاً».

ومنه قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ كرَّمَ الله وجهه في إحدى خطبه: «فإن تقوى الله مفتاحُ سَداد، وذخيرةُ مَعَاد، وعِتْقٌ من كلِّ ملكة[3]، ونجاة من كل هلكة، بها ينجح الطالبُ، وينجو الهارب، وتُنَال الرغائب، فاعملوا والعملُ يُرْفَعُ، والتوبة تَنْفَعُ، والدعاءُ يُسْمَعُ».[4]

ومنه قول علي كرَّمَ الله وجهه في وصف بيعته بالخلافة:[5]

«وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتُها، ثم تداككتم[6] عليَّ تداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها، حتى انقطعت النَّعْلُ، وسقطت الرِّداء، ووُطِىءَ الضعيف، وبلغ من سرور الناسِ ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير، وهدج إليها

---

(١) سورة طه ـ الآيات ١ ـ ٨.

(٢) المثل السائر ـ القسم الأول ـ ص٢١١.

(٣) الملكة: بالتحريك الرق، أي عتق من رق الشهوات والأهواء. والهلكة بالتحريك: الهلاك.

(٤) الشريف الرضي ـ نهج البلاغة (شرح محمد عبده) ج١ ـ ص٢٢٣.

(٥) المرجع السابق ـ ص٢٢٢.

(٦) التداك: الازدحام، كان كل واحد يدك الآخر أي يدقه. الهيم: العِطاش جمع هيماء.

الكبير[1]، وتحامل نحوها العليل، وحسرت إليها الكعَابُ.

والسجع محسن بديعي مجاله الأول النثر، ومجاله الثاني الشعر، وعليه فالنثر أولى به من الشعر، ذلك أن الشعر موزون مقفى، فالموسيقى سمة أساسية للشعر.

أما أهم شروط السجع:

١ ـ أن تكون ألفاظ العبارة المسجوعة فصيحة.
٢ ـ أن تكون الألفاظ تابعة للمعنى، خادمة له، لا أن يلتوي المعنى ليكون تابعاً لها أو خادماً.
٣ ـ أن تكون الفقرة الثانية من السجع حاملة معنى جديداً غير الذي حملته الفقرة الأولى، وإلّا كان الكلام حشواً وثرثرة.
٤ ـ أن لا تزيد عدد الفِقَر المنتهية بإيقاع واحد عن سجعتين أو ثلاث.
٥ ـ أن تكون فِقَر السجع قليلة، قصيرة التركيب، وخيرها ما تركب من كلمتين، أو ما زاد عن ذلك قليلاً.
٦ ـ خير السجع ما تساوت فِقَره، فإن لم تتساوَ، فما زادت التالية على سابقتها بقليل لئلا تضيع لذة الإيقاع.
٧ ـ أن يوقف على نهاية كل فقرة بالساكن، وإلّا أضاع الإعراب نغمة الإيقاع.
٨ ـ يسامح السَّجاعة في تغيير لفظة الفاصلة كي توافق أختها، ويعامل صاحبها كما يعامل الشاعر، إذ يجوز له ما لا يجوز لغيره.[2]

ـ أقسام السجع في النثر:

للسجع في النثر ثلاثة أضرب هي:[3]

---

(١) هدج: مشى مشية الضعيف. الكَعَاب: الجارية حين يبدو ثديها للنهود وهي الكاعبة، وحسرت: أي كشفت عن وجهها متوجهة إلى البيعة لتعقدها بلا استحياء لشدة الرغبة لأمير المؤمنين.

(٢) د. بكري شيخ أمين ـ البلاغة العربية ـ ج٣ ـ ص١٢٧.

(٣) د. عبده عبد العزيز قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ ص٣٨١.

١ ـ الترصيع أو المرصع .
٢ ـ المتوازي .
٣ ـ المطرف .

١ ـ المرصع :

ويتحقق إذا كان ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن والتقفية .

قول الحريري : «فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه» .

وقول أبي الفضل الهمذاني : «إنَّ بعد الكدر صفواً ، وبعد المطر صحواً» .

ومنه في القرآن الكريم : ﴿**إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم**﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿**إنَّ الأبرارَ لفي نعيم ، وإنَّ الفجار لفي جحيم**﴾[2] .

ومنه قول الرسول ﷺ : «اللهم اقبل توبتي ، واغسلْ حَوْبتي» .

٢ ـ المتوازي :

هو ما اتفقت فيه الفاصلتان وزناً وتقفية ، أو هو ما اتفقت أعجاز فواصله في عدد الحروف والوزن والروي .

كقوله تعالى : ﴿**فيها سررٌ مرفوعة ، وأكوابٌ موضوعة**﴾ .

وكقول الرسول ﷺ : «اللهم إني أدرأ بك في نحورهم ، وأعوذ بك من شرورهم» .

٣ ـ المطرف :

وهو ما اتفقت فيه الفاصلتان تقفيةً لا وزناً ، كقوله تعالى : ﴿**ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً**﴾[4] .

---

(١) سورة الغاشية ـ الآيتان ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) سورة الانفطار ـ الآيتان ١٣ ، ١٤ .
(٣) سورة الغاشية ـ الآيتان ١٣ ، ١٤ .
(٤) سورة نوح ـ الآيتان ١٣ ، ١٤ .

وقوله تعالى: ﴿**والمرسلات عرفاً، فالعاصفات عصفا**﴾[1].

ـ أقسام السجع في الشعر:

للسجع في الشعر ضربان اثنان هما:

١ ـ التشطير.

٢ ـ التصريع.

١ ـ التشطير:

هو أن يجعل كل من شطري البيت سجعة مخالفة لأختها، كقول أبي تمام:

تدبير معتصم، بالله منتقم   لله مرتقبٌ، في الله مرتغب

فالشطر الأول سجعته مبنية على قافية الميم، والشطر الثاني سجعته مبنية على قافية الباء.

ومن ذلك قول البوصيري:

كالزهر في ترفٍ، والبدر في شرف   والبحر في كرم، والدهر في همم

وقول ابن جابر الأندلسي، والشاهد في البيت الثاني:

يا أهل طيبة في مغناكم قمرٌ   يهدي إلى محمود من الطرق

كالغيث في كرم، والليث في حرم   والبدر في أفق، والزهر في خلق

٢ ـ التصريع:

والتصريع مأخوذ من مصراعي الباب، وهو جعل العروض مقفاة تقفية الضرب، لكنه لا يستحسن إلّا في مطالع القصائد تمييزاً لها عن غيرها.

فمن ذلك قول المتنبي:

إذا كان مدْحٌ فالنسيب المقدم   أكلُّ فصيح قال شعراً متيم

---

(١) سورة المرسلات ـ الآيتان ١، ٢.

ومن ذلك مطلع معلقة امرىء القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ب ـ الجناس:

الجناس في اللغة مأخوذ من كلمة «الجنس» وهي الضَّرْبُ من كل شيء.
والجناسُ اصطلاحاً: هو تشابه كلمتين في النطق، واختلافهما في المعنى.
ويسميه بعض البلاغيين «التجانس» أو «التجنيس» أو «المجانسة».

ـ أنواع الجناس:

الجناس نوعان:

أ ـ الجناس التام.

ب ـ الجناس غير التام.

والجناس التام هو ما اتفق طرفاه في أربعة أمور:

١ ـ جنس الحروف.

٢ ـ عدد الحروف.

٣ ـ ضبط الحروف.

٤ ـ ترتيب الحروف.

أما الجناس غير التام، فهو ما اختلف طرفاه في واحدٍ من الأربعة السابقة.

أ ـ الجناس التام:

ينقسم الجناس التام إلى ثلاثة أضرب هي:[1]

١ ـ المماثل:

وهو ما كانت الكلمات فيه من نوعٍ واحد: اسمين، أو فعلين أو حرفين.

ـ مثال الاسمين:

قول الله تعالى: ﴿**يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة**﴾.

(١) د. عبده عبد العزيز قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ ص٣٦١.

وقوله تعالى: ﴿**يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، يقلّب الله الليل والنهار، إنَّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار**﴾.

وقول أبي تمام:

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا
صدور العوالي في صدور الكتائب

الجناس في «صدور» و «صدور». فالأولى أعالي الرماح، والثانية نحور الجنود.

ـ ومثال الفعلين:

قول أبي محمد الخازن:

قوم لو أنهم ارتاضوا لما قرضوا   أو أنهم **شعروا** بالنقض ما **شعروا**

فالجناس في كلمتي شعروا، ففي الأولى «أحسوا»، وفي الثانية «نظموا الشعر».

وقول الشاعر:

يا إخوتي مذ بانت النُّجُبُ   وجب الفؤاد وكان لا **يجبُ**
فارقتكم وبقيت بعدكم   ما هكذا كان الذي **يجبُ**

(يجب) التي في آخر البيت الأول من الوجيب وهو الخفقان، والتي في آخر البيت الثاني من الوجوب وهو الحتم.

ـ ومثال الحرفين:

قول بعضهم: «مِنَ الناس مَنْ يعمل **مِن** أولِ النهار إلى آخره».

الجناس في «مِن» و «مِن»، فالأولى تفيد التبعيض أي بعض الناس، والثانية تفيد التوقيت، أي ابتداءً من أول النهار.

٢ ـ المستوفى:

وهو ما كانت كلمتاه من نوعين مختلفين، بأن تكون إحداهما اسماً والأخرى فعلاً، أو بأن تكون إحداهما حرفاً والأخرى اسماً أو فعلاً.

فمن أمثلة الجناس المستوفى بين اسم وفعل قول أبي تمام:

ما مات من كرم الزمان فإنه **يحيا** لدى **يحيى** بن عبدالله

وقول أبي العلاء:

لو زارنا طيفُ ذات الخال **أحيانا** ونحن في حُفَرِ الأجداث **أحيانا**

ومن أمثلة الجناس المستوفى بين فعل وحرف، قول الشاعر:

علا نجمه في عالم الشعر فجأةً **على** أنه ما زال في الشعر شاديا

وقول الآخر:

ولو **أنَّ** وصلاً عللوه بقربه لما **أنَّ** من حمل الصبابة والجوى

٣ ـ المركب:

هو ما كان أحد طرفيه مفرداً والآخر مركباً، كقول الحريري:

ولا تَلْهَ عن تذكار ذنبك وابكه بدمعٍ يحاكي الوبل حال **مصابه**
ومَثِّلْ لعينيك الحمام ووقعه وروعة ملقاه ومطعم **صابه**

وكقول أبي الفتح البستي:

إذا ملكٌ لم يكن **ذا هبة** فدعه فدولته **ذاهبة**

وقول الآخر:

عضنا الدهر **بنابه** ليت ما **بنا به**

ب ـ الجناس غير التام:

وهو ما اختلفت كلمتاه في واحد في الأمور التالية:

١ ـ جنس الحروف.

٢ ـ عدد الحروف.

٣ ـ ضبط الحروف.

٤ ـ ترتيب الحروف.

والجناس **غير** التام ستة أضرب، هي:[1]

١ ـ أن تكون الحروف في الكلمتين متساوية في تركيبها، مختلفة في وزنها، كقوله ﷺ: «اللهم كما حسَّنْت **خَلْقي**، حسِّنْ **خُلُقِي**.

وقول البحتري:

وفـرَّ الخـائن المغـرورُ يرجـو　　أمـانـاً أيَّ ساعـة من أمـانِ
يهـابُ الالـتفـاتَ وقـد تهيَّا　　للحـظةِ **طَرْفِـهِ طَرْفُ** السِّنَانِ

٢ ـ أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرفٍ واحدٍ لا غير. فمنه قوله تعالى: ﴿**وجوه يومئذٍ** ناضرة، إلى ربها **ناظرة**﴾[2].

وكقوله تعالى: ﴿**وهم** ينهوْن **عنه**، وينأوْن **عنه**﴾[3].

وكقول البحتري:

من كل ساجي الـطرف أغْـيَدَ أجْيَدٍ　　ومـهفهفِ الكشحين **أحـوى أحـور**

٣ ـ أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد، كقوله تعالى: ﴿**والتفت** الساق **بالساق**، **إلى ربك يومئذ** المساق﴾[4].

---

(١) ابن الاثير ـ المثل السائر ـ القسم الأول ـ ص٢٦٨.

(٢) سورة القيامة ـ الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٣) سورة الأنعام ـ الآية ٢٦.

(٤) سورة القيامة ـ الآيتان ٢٩، ٣٠.

وكقوله تعالى: ﴿**وهم** يحسبون **أنهم** يحسنون **صنعا**﴾.

٤ ـ النوع الرابع ويسمى المعكوس، وهو ضربان: أحدهما عكس الألفاظ، والآخر عكس الحروف.

فالأول: كقول بعضهم: «عاداتُ الساداتِ سادات العادات».

وكقول الآخر: «شيم الأحرار، أحرار الشيم».

ومن هذا قول أبي الطيب المتنبي:

فلا مجد في الدنيا لمن قلَّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلَّ مجده

وكقول الآخر:

إنَّ الليالي للأنام مناهلٌ تطوي وتنشرُ بينها الأعمارُ
فَقِصارُهُنَّ من الهموم طويلةٌ وَطِوَالُهُنَّ من السرور قِصَارُ

والثاني: وهو عكس الحروف كقول بعضهم:

أهديْتُ شيئاً يَقِلُّ لولا أحدوثة الفال والتبرُّكْ
كرسي تفاءلت فيه لما رأيت مقلوبه **يسرك**

ومن هذا قول الشاعر:

جاذبتها والريحُ تجذبُ عقرباً من فَوْقِ خدٍّ مثلِ قلبِ العقرب
وطفقت ألثم ثغرها فتمنعت وتحجَّبت عني بقلب «العقرب»

وإذا قُلِبَ لفظ «عقرب» صار «بُرْقُعَا».

٥ ـ ويسمى المُجَنَّب أو المردد أو المكرر، وهو أن يجمع مؤلف الكلام بين كلمتين تتبع إحداهما للأخرى، وهو يقوم على ترديد كلمتين متجانستين، إحداهما مضمومة إلى الأخرى، لغاية التتمة والتكملة لمعناها، كقول بعضهم:

أبا العباس لا تحتسب بأني لشيءٍ من حُلَى **الأشعار عاري**

فلي طَبْـعٌ كسلســالٍ مَعِـينٍ زلالٌ من ذُرَا **الأحــجــارِ جاري**

ويعلق ابن الأثير على هذا القسم بقوله: [1] «وهذا القسم عندي فيه نظر، لأنه بلزوم ما لا يلزم أولى منه بالتجنيس. ألا ترى أن التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى، وها هنا لم يتفق إلّا جزءٌ من اللفظ، وهو أقله».

٦ ـ الضرب السادس والأخير، وهو ما يساوي وزنه تركيبه، غير أن حروفه تتقدم وتتأخر، وذلك كقول أبي تمام:

بيض **الصفــائح** لا سود **الصحائف** في متــونهن جلاء الشــك والــرِّيَبِ

وبعد، فلا يخفى على الأديب ما في الجناس من الاستدعاء لميل السامع، لأن النفس ترى حُسْنَ الإفـادة، والصـورة صورة تكرار وإعادة، ومن ثم تأخذها الدهشة والاستغراب، ولأمر ما عُدَّ الجناس من حُلَى الشعر. [2]

---

(١) المثل السائر ـ القسم الأول ـ ص٢٧٦.

(٢) سيد أحمد الهاشمي ـ جواهر البلاغة ـ ص٤٠٢.

فهرس المصادر والمراجع

١ - ابن حجة الحموي - خزانة الأدب.
٢ - ابن سنان الخفاجي - سر الفصاحة - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١.
٣ - ابن الأثير - المثل السائر (القسم الأول) - دار نهضة مصر - ط٢.
٤ - ابن الأثير - المثل السائر (القسم الثاني) - دار نهضة مصر - ط٢.
٥ - ابن الأثير - المثل السائر (القسم الثالث) - دار نهضة مصر - ط٢.
٦ - علي بن أبي طالب - نهج البلاغة - دار المعرفة - (شرح الشيخ محمد عبده).
٧ - السيد أحمد الهاشمي - جواهر البلاغة - دار الفكر - بيروت - ط٢.
٨ - أبو هلال العسكري - الصناعتين - دار الكتب العلمية/بيروت - ط٢.
٩ - علي الجارم ومصطفى أمين - البلاغة الواضحة - دار المعارف بمصر.
١٠ - د. بكري شيخ أمين - البلاغة العربية في ثوبها الجديد - جـ١ - دار العلم للملايين - ط٣.
١١ - د. بكري شيخ أمين - البلاغة العربية في ثوبها الجديد - جـ٢ - دار العلم للملايين - ط٣.
١٢ - د. بكري شيخ أمين - البلاغة العربية في ثوبها الجديد - جـ٣ - دار العلم للملايين - ط١.
١٣ - د. صبحي الصالح - دراسات في فقه اللغة - دار العلم للملايين - ط١.
١٤ - د. إبراهيم السامرائي - مع نهج البلاغة دراسة ومعجم - دار الفكر - عمان - ط١.
١٥ - سيد أحمد خليل - المدخل إلى دراسة البلاغة العربية - دار النهضة العربية - بيروت - ط١.

١٦ ـ د. عبد السلام عبد الحفيظ ـ مناهج البحث البلاغي في الدراسات العربية ـ دار الفكر العربي بمصر.
١٧ ـ د. بدوي طبانة ـ علم البيان ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ط٤.
١٨ ـ أحمد الصاوي ـ مفهوم الاستعارة ـ منشأة المعارف بالاسكندرية ـ ط١.
١٩ ـ د. محمود أحمد أبو عجمية ورفاقه ـ علوم البلاغة ـ دار الهلال.
٢٠ ـ د. أحمد مطلوب ـ البحث البلاغي عند العرب ـ دار الجاحظ ـ بغداد.
٢١ ـ د. شوقي ضيف ـ البلاغة تطور وتاريخ ـ دار المعارف بمصر ـ ط٦.
٢٢ ـ د. محمد عبد المنعم خفاجي، و د. عبد العزيز شرف ـ نحو بلاغة جديدة ـ مكتبة غريب/مصر.
٢٣ ـ د. أحمد مطلوب ـ أساليب بلاغية ـ وكالة المطبوعات ـ الكويت ـ ط١.
٢٤ ـ عبد القاهر الجرجاني ـ أسرار البلاغة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٢٥ ـ د. أحمد أبو حاقة ـ البلاغة والتحليل الأدبي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت.
٢٦ ـ د. عبده عبد العزيز قلقيلة ـ البلاغة الاصطلاحية ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة.
٢٧ ـ الإمام القزويني ـ التلخيص في علوم البلاغة.
٢٨ ـ فيكتور الكك وأسعد علي ـ صناعة الكتابة ـ ط٥.
٢٩ ـ الزمخشري ـ أساس البلاغة ـ دار الفكر.
٣٠ ـ د. محمد بركات أبو علي ـ معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني ـ دار الفكر ـ عمان.
٣١ ـ د. محمد بركات أبو علي ـ فصول في البلاغة ـ دار الفكر ـ عمان.

الفهرس







دار الفكر للنشر والتوزيع
هاتف ٦٢١٩٣٨ - ص.ب ١٨٣٥٢٠
عمان - الأردن